الثقافة والممارسة

هنالك ناحية أساسية حول العلاقة بين العمل الثوري والمثقفين كثيرا ما ينساها المثقفون ، لانهم مثقفون ، تتلخص بما قاله كاسترو في خطابه في المؤتمر الثقافي في مطلع ١٩٦٨ عن علاقة المثقف بالعمل وبالممارسة • فقد سمى كاسترو المثقفين **عمالا فكريين** ، أي أنهم يصدرون انتاجا فكريا •

ان نتائج مهمة تنبع من هذا القول :

(١) علاقة الفكر بالعمل • يقول دوبريه : « اذا لم تتم السيطرة الفكرية على الان ، تبقى المسألة الاساسية « ما العمل ؟ » بلا أساس ولا جواب » • ومعنى ذلك ان للفكر الاولوية في العلاقة الجدلية بين الفكر والعمل ، بين النظرية والممارسة • فالرؤيا هي نقطة الانطلاق التي تبدأ منها الممارسة واليها تعود • ولولا هذه الحركة ـ الانطلاق من الفكر والعودة اليه من خلال الممارسة ـ لما تمكن العمل الثوري من تأمين تصاعده ، من الانتقال الى مستوى أعلى من النضوج •

(٢) « كل تحول في محتوى الوعي الجماهيري يشكل تحولا في الواقع الاجتماعي • لذا يشكل العمل الفكري ممارسة عملية » • (جرزي ويتر ، استاذ السوسيولوجيا في معهد الفلسفة والسوسيولوجيا البولوني) • اذا كان هذا القول صحيحا ، فالكلمة التي ينطق بها المثقف الثوري هي بمثابة فعل محسوس • غير ان صحة هذا القول تعتمد على شرط أساسي : مقدرة المثقف الثور يعلى تحويل « محتوى الوعي » ، أي تحويل القوة العقلية الى قوة مادية • من هذه الناحية تظهر الحقيقة الاتية : لا يكون الفكر عملا الا حين يرتبط الفكر بواقعه الحياتي • وهو يبقى مجردا ـ يبقى انشاء ووعظا وخطابة ـ عندما يفقد علاقته بالواقع الحياتي • بهذا المعنى تظهر « أزمة المثقفين » **العرب على انها في** صميمها أزمة مفكرين قبل أن تكون أزمة فكر بالذات •

(٣) لا تكون الراديكالية الفكرية باعطاء النصائح • انها ليست في وضع خطة العمل الثوري أو الدخول في التفاصيل التي لا يمكن أن تقررها الا القيادة الثورية • المهم ، كما قال سارتر ، أن يتكلم المثقف الراديكالي « باسم جماعة من الناس منغمسة في الممارسة الفعلية » • المهم أن يخرج من حدود « الأنا » ،

وأن يتجاوز عالم الفكر الذاتي . بهذا المعنى يصبح « الكشف عن الوقائع » كما قال سارتر ، « والممارسة العملية شيئا واحدا » . وكيف يحدث هذا الكشف Demystification بواسطة اظهار الحقيقة أولا واخرا ، فالحقيقة هي وحدها قادرة على تبديد الابهام الذي يرافق التبريرات الفكرية كلها . مهمة المثقف هي السعي وراء الحقيقة والاعلان عنها . بالحقيقة وحدها تعرف امكانات الواقع وتكتشف منابع العمل العقلاني .

(٤) الذهنية الدوجماتية هي شرك للمثقفين . كل مجتمع يعاني آلام مخاض التحول الجذري يحتاج الى ثقافة جذرية مستقلة تستمد روحها من حاجاته وواقعه هو . اللينينية والكاستروية والماوية يجب أن تكون نماذج وحسب ، ولا يجوز اعتمادها كمراجع أخيرة للعمل والممارسة والفكر . نحن نرى اليوم ان السبب الرئيسي للتجاذب والتضارب ضمن الراديكالية العربية انما هو الارتباط العنيف بمواقع تحددها هذه النماذج . نحن بحاجة الى الكشف عن معالم جديدة تتسم بطابع التجربة الفلسطينية ـ العربية وتلخص أهدافها بشكل يجعلها قادرة على أن تستفيد من التجارب الاخرى وان تقدم لها وان تخلق عالمها المستقل .

(٥) النظرة الطويلة المدى . « التفاؤل التاريخي » الذي يتحدث عنه محمود درويش مصدره القدرة على رؤية الاحداث والاشخاص والقضايا في اطار النظرة الطويلة المدى . ضمن هذا الاطار وحده تجد الاحداث والاشخاص والقضايا أمكنتها ومعانيها الصحيحة . عندئذ لا يعود التشاؤم أو التفاؤل أمرا محكوما بما يحدث اليوم أو غدا . بما تقوله نشرة أخبار المساء . المثقف الراديكالي ، لا المنغمس في الممارسة اليومية ، هو المؤهل لرؤية الامور في أبعادها الصحيحة . واجبه ومهنته تسليط الضوء على التناقضات وتقديم التحليلات النقدية التي تؤدي الى رؤيا الامور رؤيا صحيحة .

*

يعمل المثقف الراديكالي من خلال الانهماك الفكري ـ التحليلي المستمر : بالنقد ، بمهاجمة القضايا من نواحيها المختلفة ، باظهار سلبيات العلاقات وايجابياتها . بالكشف عن الوجوه المتعددة للشيء الواحد . بهذا كله يشارك المثقف في تحديد المعنى ورسم الطريق ووضع الهدف .

أن يكون الشخص طالبا جامعيا أو أستاذا أو كاتبا لا يكفي لان يكون مثقفا بالمعنى الراديكالي . كلنا يعرف ان حصول الشخص على شهادة علمية لا يجعله ، بذاته ، مثقفا . والاميون المتعلمون هم **أخطر الاميين** .

المثقف الحقيقي **لا يؤمن** بالثورة . مهمته أن يترجم الايمان الثوري الى محتواه العقلي ، أن يعطي الايمان معناه لكي يثبت قاعدته . ليس من مهرب للمثقف الراديكالي من هذا التناقض : تناقض الثورة بايمانها وتناقض العقل بحقيقته . ولعل أكبر تناقضات المثقف العربي ليس في أنه لا يعيش الثورة كمقاتل ، بل في انه لا يعيشها كمثقف .

هشام شرابي

منير بشور

حول المفكرة التربوية : تساؤلات ومقترحات

في عام ١٩٦٩ ، وبعد سنتين من حرب حزيران ، سئل اسحق رابين سفير اسرائيل في الولايات المتحدة حاليا ورئيس أركان اسرائيل عام ١٩٦٧ عن رأيه في تطور الاوضاع بين العرب واسرائيل وعما اذا كان ما يزال واثقا من قدرة اسرائيل على التغلب على العرب اذا ما قامت الحرب من جديد ، فأجاب : « لا تزال العوامل التي أوصلتنا الى النصر سنة ١٩٦٧ هي نفسها اليوم ، كما انها لا تزال لمصلحتنا • ان خلق جيش حديث يفترض وجود بلد وشعب متقدمين في الهيكل الاجتماعي والتربية وطريقة الحياة بكاملها » • اننا نحب أن نتصور أن ما يجري اليوم على الصعيد التربوي في لبنان يهدف الى تكوين « بلد وشعب متقدمين في الهيكل الاجتماعي والتربية وطريقة الحياة بكاملها » ، وليس لاننا نرغب أن يصبح لنا جيش حديث وحسب وانما لاننا نرغب أن يصبح لنا مجتمع حديث ودولة حديثة وحضارة حديثة .

***

لنسترجع أولا شريط الاحداث التربوية منذ تولي الحكومة الحاضرة مسؤولياتها :

في حواره مع الطلاب على شاشة التلفزيون في الاول من كانون الاول وصف غسان تويني مشكلة المعادلات بأنها « الدبوس الذي فقأ الدمل » • يعني ذلك أن الوضع التربوي كان ، ولفترة طويلة ، يعتمل بالمساوىء والاخطاء فجاءت مسألة المعادلات لتفقأ الدمل • وكان البيان الوزاري ، قبل ذلك ، قد حدد مهمة الوزارة في الحقل التربوي على الشكل التالي : « مراجعة جميع برامج التربية والتعليم ، أكاديمية كانت أم مهنية ، في ضوء التخطيط العام ، بحيث ينتظم التخرج من المدارس والجامعات على أساس توافر الاعمال وتزايد الحاجات ••• » • لكن الدبوس لم يمهل الدمل ، وقامت مظاهرات الطلاب في أواخر تشرين الثاني تطالب بالغاء مفعول القرار الذي اتخذته لجنة المعادلات في ١٩٦٨/٢/٨ والقاضي بالتوقف عن معادلة البكالوريا اللبنانية ، القسم الثاني ،

بأي من الشهادات الاجنبية اذا لم تكن هذه الشهادات مسبوقة بالبكالوريا اللبنانية القسم الاول ، وذلك **ابتداء** من أول اذار عام ١٩٧١ ٠

أثناء قيام المظاهرات وبعدها دخل غسان تويني في حوار ولقاءات مع الطلاب وغيرهم من المهتمين بالتعليم ، وانتهى في الرابع والعشرين من تشرين الثاني الى اعلان مشروع قانون معجل ينص في مادته الثالثة على ما يلي : « بصورة استثنائية ولمرحلة انتقالية **تنتهي** في أول تشرين الثاني ١٩٧٢ تعطى معادلة البكالوريا اللبنانية القسم الثاني للشهادات الثانوية غير اللبنانية في احدى حالتين : أ ـ اذا كان حامل الشهادة غير اللبنانية قد فاز بالبكالوريا القسم الاول ، ب ـ اذا تابع حامل الشهادة غير اللبنانية بنجاح الدورات الاستكمالية التي تقيمها وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة لهذه الغاية ٠٠٠ » ٠

نرى من هذا أن ما قصد اليه مشروع القانون المعجل في الواقع هو مجرد ربح الوقت لمعالجة موضوع الدمل بكامله ومن الاساس ٠ فالمشروع لم يأت بحل ولا بمشروع حل وكل ما يستخلص منه انه أجل موعد تطبيق قانون ١٩٦٨/٢/٨ لمدة تقارب السنتين وذلك دون أن يلزم نفسه بجواز المعادلات **بعد** تشرين الثاني ١٩٧٢ بينما كان قانون ١٩٦٨/٢/٨ قد سمح بالمعادلات **ابتداء** من اذار ١٩٧١٠ أما الدورات الاستكمالية فمن الواضح انها مجرد غطاء لتبرير تمديد موعد تنفيذ قانون المعادلات ، ولهذا السبب جاءت غامضة في أهدافها وشروطها ٠

الحاجة كانت أساسا الى مزيد من الوقت ٠ وهـذا ما تأمن في مشروع القانون المعجل ٠ وحالما اطمأنت الوزارة الى توفر الوقت عمدت وبسرعة ، الى الاقدام على خطوتين مهمتين نعتبرهما أساس السياسة التربوية التي تنوي اتباعهـا ٠

الخطوة الاولى كانت استصدار مرسوم استبدال شهادتي البكالوريا اللبنانية بشهادتي الثانوية الاولى والثانوية الختامية على أن تضم الشهادة الاولى قسمين : الثقافة العامة ، والعلوم ، وأن تضم الشهادة الختامية ستة أقسام : ثقافة انسانية وفلسفة ، علوم اختبارية وطبيعيات ، رياضيات ، ادارة وعلوم اجتماعية ، لغات حية ، علوم تطبيقية وتقنية ٠ أما **الخطوة الثانية** فتتمثل باحياء لجنة المناهج التي كانت قد أحدثت في ٢٧ أيلول ١٩٦٧ بموجب المرسوم رقم ٩٠٩٩ ولكنها لم تجتمع الى أن تم ذلك في السابع من كانون الاول بعد أن تم تعيين مختلف أعضائها ٠

اذن ، محاولة الوزارة لمعالجة الدمل التربوي جاءت عن طريق هاتين الخطوتين دون سواهما ٠ ومن الواضح أن هاتين الخطوتين لم تأتيا متناسقتين الواحدة مع الاخرى اذ قطع مرسوم استبدال البكالوريا الطريق على عمل اللجنة واضعا اياها أمام الامر الواقع باستحداثه فروعا مختلفة للشهادة الثانوية ٠ ويبدو أن الوزارة أحست بهذا التناقض ، كما يظهر في الفقرة الاولى من المفكرة التي وضعتها أمام لجنة المناهج ، فأشارت الى أنها اضطرت الى « الاستعجال في اتخاذ المقررات المطروحة الان للبحث ، والمكرسة بموجب المرسوم الذي صنف الشهادات الثانوية » ٠ ولكنها رغم اعترافها بالاستعجال احجمت عن أن تعطي

اللجنة حق اعادة تصنيف الشهادات الثانوية ، وبدلا من ذلك دعت اللجنة الى أن « تنظر » في المرسوم ، لا أن « تعيد النظر فيه » ، تاركة لها « حرية التحرك الكلية ، ان لجهة تقرير جدول الاعمال التفصيلي ، أو لجهة روزنامة العمل » • أما حرية اعادة التصنيف فقد بقيت خارج المهمة التي حددتها الوزارة للجنة ، أو على الاقل لم تذكر بوضوح كاحدى المهام المطروحة أمام اللجنة •

من الجائز أن تكون الوزارة قد أغفلت دعوة اللجنة الى اعادة النظر في التقسيمات دون قصد ، ولعلها لن تمانع اذا ما أخذت اللجنة على عاتقها ، وبدافع ذاتي منها ، حق اعادة النظر في هذه التقسيمات • وقد رغبنا في الاشارة الى هذا التناقض أو الغموض في سياسة الوزارة مخافة أن تحجم اللجنة عن الدخول في اعادة النظر بهذه التقسيمات وتعتبر أن عملها يقتصر على تحديد المواد المطلوبة **في كل منها ، ذلك لاننا نشعر أنه من الضروري جدا أن تعيد اللجنة النظر في** هذه التقسيمات من أساسها وتمتحن طبيعتها وغاياتها قبل اقرارها بشكلها **الاخير • وسنحاول في ما تبقى من هذا المقال أن نعرض آراءنا في ما تضمنته** مفكرة الوزارة باعتبار أن هذه المفكرة ما تزال ، حتى هذه الساعة ، الوثيقة الوحيدة التي تمكننا من مناقشة السياسة التربوية التي تنوي الوزارة أن تتبناها • وسنركز آراءنا على ناحيتي **الهرم التعليمي وتنويع الشهادات** •

أ ــ الهرم التعليمي

لا تشذ مفكرة الوزارة عن نمط التفكير السائد الذي ما زال ينظر الى الاصلاح التربوي من زاوية تعديل المناهج أو الامتحانات أو الكتب أو وسائل التدريس • هذه كلها مهمة ، ولكننا نعتقد أن هناك شيئا أكثر أهمية لم يعط اهتماما في المفكرة وهو نوع **الهرم التعليمي**• لقد وردت في المفكرة اشارة وحيدة وسريعة الى نوع الهرم لم ترد مرة ثانية في أي مكان اخر : « لا يخفى في هذا المجال أن العمل في المناهج يجب أن يتم على جبهات عدة تتناول معا هرم التعليم في مراحله الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية ، لكي تحظى كل مرحلة بما يناسبها من اصلاح في ضوء ارتباطها بغيرها من المراحل وتدخل في حيز التطبيق من دون طويل انتظار » • ولكن رغم هذا القول ، فان مسألة اعادة النظر في هذا الهيكل لم تطرح كاحدى المسائل المهمة التي تجب اعادة النظر فيها • لعل الوزارة أرادت من اللجنة أن تخصص اهتمامها للمرحلة الثانوية ولمناهج هذه المرحلة بالذات ، دون أن تبعثر جهودها في الاهتمام بأمور أخرى • ولكن كيف يمكن أن يغرب عن البال أن الهرم التعليمي هو دعامة المناهج الاولى ، وانه لا تجوز معالجة المناهج دون معالجة الهرم ، وان لهذا الهرم في لبنان شكلا من أغرب الاشكال ، **وأنه في أساس المساوىء التي تعتمل في النظام التربوي بكامله** ؟ فالهرم الحاضر مكون من أربع مراحل : الابتدائية لمدة خمس سنوات ، والمتوسطة لاربع سنوات ، ثم البكالوريا الاولى (أو الثانوية الاولى حسب التسمية الجديدة) لسنتين ، تتبعها مرحلة رابعة من سنة واحدة هي البكالوريا الثانية (أو الثانوية الختامية حسب التسمية الجديدة) ــ وبين كل مرحلة

وأخرى امتحان رسمي • والسؤال هنا : ما المنطق في جعل المرحلة الابتدائية تمتد خمس سنوات بدل أربع أو ست أو ثماني ؟ ولماذا تمتد المرحلة المتوسطة أربع سنوات بدل اثنتين أو ثلاث أو خمس ؟ ثم ما الداعي لتقسيم المرحلة الثانوية لفترتين الاولى لسنتين على نوعين ، والثانية لسنة واحدة تقسم ، فجأة ، وبعد سنة دراسية واحدة ، على ثلاثة فروع (أو ستة كما في المرسوم الجديد) ؟ ما المنطق وراء كل هذا ؟

ان طول مرحلة دراسية معينة أو قصرها أمر ، كالمناهج ، متوقف على نوع المادة التي يراد تدريسها وطبيعة هذه المادة ، وعلى طبيعة المجتمع وحاجاته ، وعلى درجة التقدم التي بلغها هذا المجتمع • ففي البلدان المتأخرة حيث لا تزال الامية منتشرة قد تكون أربع سنوات من التعليم الابتدائي أفضل من خمس سنوات اذ يمكن عن طريق ذلك بلوغ عدد أكبر من الاولاد في فترة زمنية قصيرة • وفي بلدان تنتفي فيها الامية ولكنها مصابة بالتفكك الاجتماعي ، أو في تلك التي ترغب في نشر ايديولوجية معينة ، قد تكون سبع سنوات أو ثماني أفضل من خمس أو ست • كما أن عدد السنوات لا يبقى ثابتا على مر الايام ، بل يتغير وفق تغير الحاجات • ففي روسيا ، مثلا ، حددت فترة التعليم الابتدائي بعد الثورة الاشتراكية بأربع سنوات ثم زيد عدد السنوات حتى أصبح اليوم ثماني ، أي ضعف ما كان عليه في مطلع عهد الثورة •

ان تغيير عدد السنوات ورفعها في مرحلة ما وخفضها في أخرى أمر من شأنه أن يحدث تغييرات مهمة في التركيب الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في مجتمع ما وذلك دون عناء كبير كالعناء الذي يقتضيه تغيير المناهج وادخال فروع أو مواد جديدة • وفي بعض الحالات يستحسن ادخال مثل هذه التغييرات في شكل الهرم التعليمي لمجرد اثارة الحركة في التركيب الاجتماعي للبلد حتى ولو كان هناك نوع من التوافق بين شكل الهرم وحاجات البلد • أما في لبنان فنلاحظ ان الهرم الحاضر لم يتغير منذ عهد الاستقلال ثم ان نظرة سريعة الى شكله القائم ترينا كم هو متنافر مع حاجات لبنان ومع وضعه الثقافي والاجتماعي ، ثم كم هو مفتقر الى التواصل العضوي بين مرحلة وأخرى • فما الذي يناله الولد اذا أمضى في المدرسة خمس سنوات ثم تركها في بلد كلبنان ؟ هل تؤهله هذه السنوات الخمس ليحصل على متطلبات الحياة الاساسية ، وهل تكفي هذه السنوات لكي يعبر عتبة الامية الثقافية في بلد كلبنان ؟ ثم ما الداعي لان نرمي به بعد أن يكمل سنواته الخمس الاولى ، في مرحلة تعليمية متوسطة تمتد أربع سنوات ونخضعه للملل والترداد والتكرار الطاغي في هذه المرحلة من صف لاخر دون أن نعطيه الفرصة ليبلغ عتبة جديدة في الهرم قبل أربع سنوات ، ولكنه ما أن يجتاز هذه المرحلة الطويلة ويبلغ عتبة الدراسات الثانوية حتى نعطيه فترة جديدة لسنتين فقط ، ثم نخضعه من جديد بعد أن يكمل هاتين السنتين ويحصل على البكالوريا الاولى لمرحلة رابعة ولفترة قصيرة جدا تتكون من سنة واحدة فقط ؟

ليس لهذا الهرم من مبرر سوى التحدي والتعجيز • واذا تذكرنا أن الامتحانات الرسمية ، مهما ادخل عليها من تحسينات ، تبقى عاجزة عن أن

تحكم في معارف الناشئة ومؤهلاتهم لاسباب مختلفة نستخلص أن الهرم التعليمي في لبنان ، بمراحله الاربع وامتحاناته الاربعة ، **عبء على مستقبل الناشئة وسبب رئيسي لهدر الطاقة البشرية في لبنان أو تهريبها** •

لهذا نطرح أمام الوزارة ولجنة المناهج اقتراحا بأن تعيد النظر في تقسيمات الهرم التعليمي وتحددها على **ثلاث** مراحل ، الاولى تمتد لفترة **ست** سنوات ، والثانية **لثلاث** سنوات ، والثالثة **لثلاث** سنوات أيضا • على أن تكون المرحلتان الاوليان مشتركتين لجميع الطلاب ، أي أن لا يسمح بالتفرع عنهما قبل نهاية الصف التاسع ، وأن تكون المرحلة الاخيرة متفرعة لاربع شعب سنحددها فيما بعد •

تبرز أفضلية هذا الهرم على ذلك المعمول به حاليا في الامور التالية :

أولا ــ انه يحدد ست سنوات من التعليم الابتدائي بدل خمس فيؤمن سنة اضافية من التعليم للاعداد الكبيرة من الاولاد الذين لا يتسنى لهم الاستمرار في دراستهم • وعلى هذا فحين يترك هؤلاء المدرسة بعد المرحلة الابتدائية فانهم يفعلون ذلك وقد زادوا على أعمارهم سنة أخرى ونضجوا قليلا وأضافوا الى علومهم وخبراتهم الاجتماعية ولو مقدارا ضئيلا • ان مستوى التقدم الذي بلغه لبنان يجعل اضافة سنة سادسة للتعليم الابتدائي ممكنا ، بالمعنى الاقتصادي ، وضروريا ، بالمعنى الثقافي والاجتماعي • ونفترض أن فترة التعليم الابتدائي يجب أن تصبح مجانية والزامية للجميع في وقت قصير •

ثانيا ــ انه يخفض من عدد سنوات الدراسة المتوسطة سنة واحدة فيزيد من رغبة الذين يدخلون هذه المرحلة ومن قدرتهم على اتمام سنواتها الثلاث خلافا لما هو حاصل الآن حيث يفقد بعض الطلاب الرغبة في اتمام السنوات الاربع بكاملها بدافع اغراءات العمل أو هربا من الملل والتكرار •

ثالثا ــ انه يزيل شهادة البكالوريا القسم الاول فيستمر الطالب لفترة ثلاث سنوات متواصلة بعد انتهائه من المرحلة المتوسطة دون انقطاع •

رابعا ــ انه يجعل الهرم اللبناني أكثر تلاؤما وانسجاما مع الاهرام التربوية في معظم البلدان العربية الاخرى حيث يتبع التقسيم الى ثلاث مراحل ٦ــ٣ــ٣ • وفي اعتقادنا أن مثل هذا الانسجام بين لبنان وبقية البلدان العربية أمر ضروري مهما اختلفت تأويلنا السياسية •

١ ــ المعادلات

• ثم ان مشكلة المعادلات لن تحل بالاصرار على البكالوريا القسم الاول كشرط مسبق للتعادل ، وبامكاننا أن نتصور بسهولة انه اذا أصرت الوزارة على الثاني الى البكالوريا القسم الاول ، فيتظاهرون مطالبين بالغاء القسم الاول كما بدأوا في ذلك فعلا • ان مشكلة المعادلات ــ الدبوس الذي فقأ الدمل ــ يمكن أن تحل **على أساس طلب الشهادة المتوسطة** ، لا شهادة البكالوريا القسم الاول (أو الثانوية الاولى حسب التسمية الجديدة) كشرط مسبق لمعادلة الثانوية البكالوريا القسم الاول فلا بد من أن يحول الطلاب نقمتهم من البكالوريا القسم

الختامية • من شأن هذا الاجراء اذا ما أخذ به أن يؤدي الى التخفيف من عدد طالبي الشهادات غير اللبنانية ، وذلك لسبب بسيط وواضح وهو أن الفرق بين الشهادة المتوسطة والثانوية الختامية ثلاث سنوات لا سنة واحدة كما هي الحال بين الثانوية الاولى والثانوية الختامية • ولهذا فعندما يجتاز الطالب امتحان المتوسطة لا بد أن تقل من طريقه العوائق التي تمنعه عن متابعة دراسته نحو الثانوية الختامية • ولهذا لا بد أن يتردد كثيرا ، بعد أن يكون قد أمضى سنة أو سنتين في منهاج الثانوية اللبنانية ، قبل أن يقرر العزوف عن هذه الشهادة ويسعى في طلب غيرها من الشهادات غير اللبنانية •

أما اذا أصر الطالب على طلب الشهادة الثانوية خارج لبنان فلا بد من معادلتها بالثانوية اللبنانية شرط أن يكون قد مضى على اجتيازه الشهادة المتوسطة ثلاث سنوات على الاقل • ان فرض الثانوية اللبنانية على جميع طلاب لبنان اجراء يتنافى مع واقع لبنان • وفي حال الاصرار على الشهادة المتوسطة للحصول على المعادلة ، تصبح المسألة مسألة سباق بين الثانوية اللبنانية وغيرها من الشهادات • ولكي تقدر الثانوية اللبنانية على ربح السباق لا بد من النظر في أهدافها ومضامينها وتقسيماتها كما سنفعل في القسم الاخير من هذا المقال •

ثم اذا كانت الغاية من الاصرار على البكالوريا القسم الاول تأمين ثقافة عامة مشتركة بين جميع اللبنانيين أو الابقاء على « آلة للاشراف من فوق » ، ففي رأينا أن ذلك ممكن وبسهولة عن طريق فرض الشهادة المتوسطة على جميع اللبنانيين • ان تسع سنوات من التعليم المشترك وفق برامج موحدة فترة كافية لتأهيل التلميذ بالصفات التي ترغب الدولة أن تؤهله لها • واذا لم تنجح الدولة في ذلك ، والتلميذ ما يزال في سنيه الخامسة أو السادسة عشر الاولى ، فمن المشكوك فيه أن تنجح بعد اضافة سنتين أو ثلاث •

مثل هذا الاجراء لن يكفي وحده ، ذلك أننا نفترض انه بالاضافة الى تحديد الشهادة المتوسطة كحد أدنى لا تجوز المعادلات قبل اجتيازه ، لا بد من العمل على جبهتين : أ ـ تشعيب الدراسات التطبيقية والمهنية والتقنية الى فروع واختصاصات مختلفة بعد الشهادة المتوسطة مباشرة ، مع ترك الباب مفتوحا أمام خريجي هذه الفروع للعودة والالتحاق بالجامعة بعد اتمام شروط معينة كانجاز سنوات تحضيرية تحددها الجامعة أو اجتياز امتحانات خاصة • ب ـ اعادة النظر ببرامج المرحلة الابتدائية والمتوسطة والفروع المهنية والتطبيقية والمرحلة الثانوية وصياغتها بشكل جديد وفي ضوء الغايات المحددة لكل من هذه المراحل والبرامج بشرط أن يكون هناك قاسم مشترك بينها جميعا ، بما فيه الفروع المهنية والتطبيقية ، ووفق مبادىء « التدرج والمتابعة والتكامل » التي أشارت مفكرة الوزارة اليها •

٢ ـ التعليم ما قبل الابتدائي

لا يجوز لنا ترك موضوع الهرم التعليمي دون الاشارة الى مرحلة ما قبل الدراسة الابتدائية • من الامور المعروفة جيدا في لبنان أن مدارس الحضانة

ورياض الاطفال موجودة فقط في المدارس الخاصة ولا وجود لها في المدارس الرسمية (عام ١٩٦٦/٦٧ كان هناك ٢٧٤ر٨١٣ تلميذا في المدارس الابتدائية الخاصة ٤٥٥ر٧٨ منهم ، أي ٢١ ٪ ، كانوا في الروضة) • هذه مشكلة خطيرة جدا ونستغرب عدم ورود أية اشارة اليها في مفكرة الوزارة • أما وجه الخطورة فيقع في أمرين :

أولا ـ أن الاولاد الذين يدخلون دور الحضانة ورياض الاطفال هم ، في غالبيتهم العظمى ، من الطبقات المتوسطة أو الميسورة الحال باعتبار أن هذه الدور والرياض تتقاضى رسوما عالية ، ولهذا لا يتسنى لاولاد الطبقات المحرومة دخول مثل هذه الرياض • أن أولاد الطبقات الفقيرة هؤلاء هم الذين يحتاجون الى دخول رياض الاطفال ولكنهم لا يجدون الى ذلك سبيلا بينما أولاد الطبقات الاكثر رخاء والذين يتوفر لهم المناخ الثقافي في بيوتهم ، لا يحتاجون الى دخولها ولكنهم يدخلونها ـ كالمريض الذي يحتاج المستشفى فلا يقدر على دخوله بينما الصحيح يدخله لاكتساب المزيد من الصحة •

ثانيا ـ في معظم رياض الاطفال تعطى اللغة الاجنبية الى جانب اللغة الام • وتكمن خطورة هذا الامر في أن اللغة الاجنبية مطلوبة في المناهج اللبنانية على مختلف مراحلها • واذا ما تذكرنا أن النجاح في اللغة لا يتوقف على مقدار الذكاء أو الجهد بالمقدار الذي يصح في مواد كالحساب أو الجغرافيا مثلا ، وانما يتوقف على مدى المشاركة والاختبار والتمرس ، تبين لنا مدى الاجحاف الذي ينزل بأولاد الطبقات المحرومة والخسارة الكبيرة التي تنزل بلبنان بسبب ضياع قسم كبير من مؤهلات بنيه لانه لم يتسن لهم التمرس باللغة الاجنبية في السنين المبكرة من حياتهم •

لقد شغلت الوزارة نفسها بالاهتمام بالمراحل العليا من سلم التعليم واهتمت بمعالجة مسألة المعادلات تحت وطأة الضغط الطلابي • لكن أطفال لبنان المحرومين لا يتظاهرون في الشوارع ولا ينوب عنهم أهلهم في التظاهر لجهلهم أو لانشغالهم في تحصيل لقمة العيش • والمطلوب من وزارة التربية أن تعي خطورة هذا الامر وتعمل على معالجته ولو لم يتظاهر أحد • ان رياض الاطفال منطلقات محجوزة سلفا لابناء الطبقات الميسورة ، والسباق بين مختلف أبناء الشعب منذ سنوات الطفولة الاولى ، « غير متكافىء الرهان » • حتى ليبدو النظام التعليمي بكامله في خدمة الوضع الراهن لا في خدمة التغير ، فيبقى الميسورون حيث هم ويرثهم أبناؤهم من بعدهم وكذلك المحرومون • ان « دمل التعليم » في لبنان متأصل في قاعدة الهرم التعليمي ولا بد من معالجته في القاعدة كما في القمة • لهذا فدعوتنا الملحة هي أن تضاف سنة واحدة من رياض الاطفال ، على الاقل ، الى الهيكل التعليمي الرسمي وبشكل مباشر ، ثم أن يصار الى تمديد هذه المرحلة الى السنتين في فترة لا يجوز أن تتعدى السنوات العشر •

ب ـ تنويع الشهادات الثانوية

اننا نأمل ونتمنى أن لا يقتصر عمل لجنة المناهج على « النظر » في

التقسيمات التي طرحتها أمامها مفكرة وزارة التربية وتعبئة هذه التقسيمات بالمواد والدروس التي تعتبرها مناسبة لكل منها ، بل أن « تعيد النظر » في هذه التقسيمات وفي خصائصها وضروراتها · واننا نسارع الى وضع الاسئلة التالية أمامها مع مقترحاتنا ، علها تساعد في مهماتها الخطيرة :

السؤال الاول : ما هي مهمة التعليم الثانوي ؟ لقد طرحت مفكرة الوزارة هذا السؤال وأجابت عنه ، ولا بد للجنة من أن تعيد طرح السؤال مرات عدة الى أن تتوصل الى الجواب المقنع · حددت مفكرة الوزارة مهمة التعليم الثانوي بثلاث وظائف هي : ١ ـ الاعداد للحياة الاجتماعية المدنية ، ٢ ـ تزويد الطالب بثقافة عامة تجمع الى سعة المعرفة المنهجية الاصالة في التفكير ، ٣ ـ التوجيه نحو الاختصاص ·

تبدو هذه الوظائف جذابة ومقنعة ، في الوهلة الاولى · لكن الغريب أن الوزارة ، رغم كل التطورات التي أصابت لبنان ورغم التأكيد على « تنظيم التخريج من المدارس والجامعات على أساس توافر الاعمال وتزايد الحاجات » كما جاء في البيان الوزاري ، ورغم رفع شعار « التربية من أجل الانماء المتكامل » كما جاء في المفكرة ، ورغم انها أشارت في الفقرات التي جاءت قبل تحديد هذه الوظائف الثلاث بقليل الى « أن المدرسة الثانوية في لبنان تطمح الى أن تكون النهاية الدنيا التي يجب أن تتوافر للغالبية العظمى من جماهير الناشئة اللبنانية لتعدهم لدخول معترك الحياة » ، فقد جاء شرحها للوظيفة الاولى ، وهي « الاعداد للحياة الاجتماعية المدنية » على الشكل التالي : « من أجل الاعداد للحياة المدنية ، لا بد لنا من أن ندخل في مناهجنا دراسة المجتمع اللبناني ودراسة المجتمع العربي المعاصر دراسة علمية » · مثل هذا الشرح يأتي مفاجئا · اذ بعد كل التأكيدات التي أعطيت عن تنظيم التخريج ، والانماء المتكامل ، واعداد جماهير الناشئة لدخول معترك الحياة ، يتوقع القاريء أن يأتي تحديد وظيفة « الاعداد للحياة الاجتماعية المدنية » منسجما مع هذه التأكيدات كأن ينص ، مثلا ، على تأهيل الطالب لممارسة مهنة ما ، أو اعداده للعمل والانتاج وفق متطلبات السوق ، أو شيء من هذا القبيل · ولكن بدلا من هذا يأتي التأكيد على دراسة « المجتمع اللبناني والمجتمع العربي دراسة علمية » !

من الواضح ان الوزارة ما تزال حائرة بصدد الاهداف التي يجب أن تتبناها في التعليم الثانوي · ما زالت مسألة التوازن أو المؤالفة بين التعليم الاكاديمي والتعليم المهني غامضة ، ولعلها مزعجة ، بالنسبة للوزارة · لهذا نرى ، عند شرح أهداف الشهادات الثانوية ، النص التالي يتردد في نهاية كل شهادة من الشهادات الست : « أن يدرك (أي الطالب) المجالات المتاحة في مجتمعنا للعمل في الميدان ومتابعة الاختصاص العالي فيه » · ومن الغرابة أن يتردد هذا النص حتى في نهاية شهادتي « الثقافة الانسانية » و « العلوم الاختبارية والطبيعيات » ! فهل يكفي **ادراك** مجالات العمل ، بدلا من **دخول** هذه المجالات ، ليتم للبنان الانماء المتكامل ؟

لعل السبب الذي جعل الوزارة تتردد بهذا الصدد هو الغموض بالنسبة الى الدور الذي يفترض بمديرية التعليم المهني أن تقوم به الى جانب دور

وزارة التربية أو ضمنه • وعلى هذا فحين تنص المفكرة على وجوب احداث « الشهادة التطبيقية التقنية » ، كاحدى الشهادات الست ، تورد النص الوحيد التالي بصددها : « يحسن أن تدرس أهداف هذه الشهادة بالتعاون مع مديرية التعليم المهني من أجل الاحاطة والتنسيق ، مع الاشارة الى أن الفارق بين الشهادتين هو الفرق بين الطابع المهني الختامي ، والطابع التقني الذي يفسح في المجال للاختيار بين الممارسة المهنية المباشرة أو التوجيه نحو المزيد من التخصص » • هل يفهم من هذا أن مديرية التعليم المهني مستقلة عن وزارة التربية ؟ وكيف تأمل الوزارة أن « ينتظم جميع أنواع التعليم ضمن اطار موحد للتعليم الثانوي العام » في حين تحدث شهادة مستقلة للدراسات المهنية على أن تدرس أهداف هذه الشهادة بالتعاون مع مديرية التعليم المهني ؟

ان البلبلة والغموض والتناقض في أغراض التعليم الثانوي كما جاء نصها في مفكرة الوزارة لا يمكن تفسيره على أنه مشكلة تنظيمية بين الوزارة ومديرية التعليم المهني وانما هو ، في اعتقادنا ، مشكلة أعمق تعود الى استمرار سيطرة الروح الاكاديمية على الوزارة الامر الذي منعها من التصدي ، بشكل صريح وواضح ، لمشكلة التأليف والتوازن بين التعليم الاكاديمي والتعليم المهني •

السؤال الثاني — اذا سلمنا بأن احدى وظائف التعليم الثانوي « التوجيه نحو الاختصاص » فما الداعي لكثرة التقسيمات في فروع الثانوية الختامية؟ لا بد من توضيح وظائف التعليم الثانوي بشكل لا يترك مجالا للغموض • فاذا كانت المدرسة الثانوية في لبنان تطمح ، كما تقول المفكرة « الى أن تكون النهاية الدنيا التي يجب أن تتوافر للغالبية العظمى من جماهير الناشئة اللبنانية لتعدهم لدخول معترك الحياة » ، فأي من الاتجاهين يفترض بالتعليم الثانوي أن يتخذه : « التوجيه نحو الاختصاص » أم « الاختصاص » ؟ ان الجواب عن هذا السؤال ليس سهلا ، ومسألة الجمع بين الاتجاهين هي من الصعوبة التي لا تقاربها سوى مسألة الجمع بين التعليم الاكاديمي والمهني • لكننا نتصور أن أي صياغة جديدة للمناهج لا يمكن أن تكون سليمة قبل أن تنجلي الاسس التي ستعتمد ازاء هذين الامرين • لهذا نلاحظ التناقض الذي وقعت فيه الوزارة حين حددت احدى وظائف التعليم الثانوي بالتوجيه نحو الاختصاص بينما طرحت ، في الوقت ذاته، «تفجير البكالوريا » الى ستة أقسام • يبدو غريبا انه في الوقت الذي تتجه معظم بلدان العالم كفرنسا وبريطانيا والمانيا وايطاليا واليابان وغيرها اتجاها متزايدا نحو التخفيف من حدة الانقسامات والتفرعات في المناهج الثانوية بتبنيها لما يعرف بالمدارس الشاملة Comprehensive Schools ، تأتي مفكرة الوزارة لتطرح تقسيم المناهج الثانوية الى ستة اختصاصات ، ثلاثة منها قسمت بدورها الى اختصاصين ، بحيث بلغت التقسيمات تسعة (لا ستة) مع ترك الباب مفتوحا لمزيد من التفرع • هل يحتاج « التوجيه نحو الاختصاص » هذه الكثرة من التقسيمات ، أم الواقع اننا نهدف الى الاختصاص بينما نتكلم على التوجيه نحوه ؟

التوجيه نحو الاختصاص يعني أن البرامج المقترحة تهيء الطالب لمباشرة اختصاصه في الجامعة • ولهذا فان قيمة البرامج تظهر في مدى تواصلها مع

برامج الجامعة ونوعية هذا التواصل • من هنا أن فائدة التقسيمات أو عدمها يقرر في ضوء الاختصاصات المتوفرة في الجامعة وليس باستقلال عنها ، خاصة اذا كان على المدرسة الثانوية أن « ترتبط بالجامعة ارتباطا عضويا » كما جاء في المفكرة • فما هي الاختصاصات المتوفرة في الجامعة وما العلاقة بينها وبين الاختصاصات الستة (أو التسعة) المقترحة على صعيد الثانوية الختامية ؟

تقسم الدراسات الجامعية في كل بلدان العالم ، كما في لبنان ، الى أربعة أقسام رئيسية وهي **أولا** ، الدراسات الانسانية ، كالفلسفة ، والاداب ، واللغات، **وثانيا** ، الدراسات العلمية كالفيزياء ، والرياضيات ، والكيمياء ، **وثالثا** ، الدراسات الاجتماعية ، كالاقتصاد والسياسة ، والاجتماع • **ورابعا** ، الدراسات التطبيقية ، كالطب ، والهندسة ، والزراعة ، والحقوق • فاذا ما قابلنا بين هذه الاقسام والفروع الستة المقترحة للثانوية الختامية نتساءل : ما هو الفرع المناسب لتوجيه الطالب نحو الاختصاص في الحقوق ، مثلا ؟ هل هو فرع الفلسفة ، أم فرع الادارة والعلوم الاجتماعية ؟ في الوقت الحاضر يفترض بمن يدخل الحقوق أن يجتاز البكالوريا فرع الفلسفة • لكن من الواضح ان فرع الفلسفة في مضمونه الحالي ، أو كما هو مقترح في مفكرة الوزارة ، ليس الفرع المناسب للاختصاص في الحقوق ، ذلك أن دراسة الحقوق قد تطورت كثيرا في السنوات العشرين الاخيرة فتعدت دراسة الدساتير والتواريخ واللغات والنظريات الفلسفية الى دراسة العلوم الاجتماعية من اقتصاد وسياسة واجتماع وعلم نفس • ثم ما هي الثانوية المناسبة لتوجيه الطالب نحو الاختصاص في العلوم الاجتماعية ؟ هل هي فرع الفلسفة ؟ بالطبع كلا ، والاقرب الى المعقول أن يكون الفرع المناسب هو فرع العلوم الاجتماعية • ولكن يظهر أن المفكرة ترغب في أن يكون هذا الفرع ذا طابع عملي أكثر منه أكاديمي مهيء للاختصاص كما يظهر من وصف هذا الفرع : « بعض شعب التعليم الثانوي ، كما في شعبة الادارة والعلوم الاجتماعية وشعبة اللغات الحية ، يمكن أن تكون ختامية بالنسبة الى الغالبية من طالبيها برغم انفتاح برامجها على التعليم الجامعي • وبالتالي ينبغي اعطاؤها مزيدا من الصفة التطبيقية » • لا يخفى ما ينطوي عليه هذا الوصف من تلاعب في الالفاظ يتمثل بعبارة « برغم انفتاح برامجها على التعليم العالي » ، كما لا يخفى التجني الذي ينزله بطبيعة العلوم الاجتماعية ، هذه العلوم التي أصبحت تتحلى بدرجة عالية من الدقة العلمية تكاد تقارب دقة العلوم الطبيعية • ثم بالاضافة لذلك نتساءل بدهشة عن سبب الجمع بين هذه العلوم وعلوم الادارة في فرع واحد بينما نعرف أن العلوم الاجتماعية أكاديمية والعلوم الادارية تطبيقية • أم هل يقصد بالعلوم الاجتماعية هنا مجرد الاعداد للخدمة الاجتماعية؟ ثم اننا نجهل المبرر الذي تعتمده الوزارة للاصرار على فرع تدعوه «بالرياضيات»• من الواضح أن هذا الفرع يتصل باختصاص الرياضيات على المستوى الجامعي ، ولكننا نتساءل كم من حاملي الشهادات الثانوية في لبنان يتابع اختصاصه الجامعي في الرياضيات ، وهل هناك حاجة ماسة في لبنان ، خاصة اذا اعتمدنا مبدأ « تنظيم التخريج من المدارس والجامعات على أساس توافر الاعمال وتزايد الحاجات » الى مثل هذا الاختصاص ؟ أو اننا يجب أن نحافظ على فرع الرياضيات

لمجرد أنه فرع موجود في المناهج اللبنانية منذ أن تشكلت هذه المناهج ؟ أم يكون بعيدا عن التصور أن نفترض أن الرياضيات هي مادة ، كالفلسفة ، بالغة الاهمية وانها يجب أن تتوفر في جميع الفروع كالخيط الجامع بينها أو كالقاسم المشترك ، لا أن تكون فرعا قائما بذاتها ؟ اذا كانت الوزارة قد رغبت في الابقاء على فرع الرياضيات حرصا منها على القديم فلا نعرف الدوافع التي جعلتها تقترح ادخال فرعين جديدين أحدهما مستقل قائم بذاته وهو فرع اللغات الحية ، والاخر هو قسم من فرع الثقافة الانسانية والفلسفة — أي فرع الفنون الجميلة • فاذا كان الهدف من هذين الفرعين هو « التوجيه نحو الاختصاص » أفلا يمكن أن يحصل مثل هذا التوجيه عن طريق الشهادة الثانوية للثقافة الانسانية والفلسفة بعد أن يتم تطعيم هذه الشهادة باللغات الحية والفنون الجميلة كمواد اختيارية ؟ ثم ، هل نكون مغالين اذا ما افترضنا أن دراسة اللغات الحية والفنون الجميلة تستلزم ثقافة عامة وادراكا واسعا من الواجب تأمينها عن طريق شهادة كشهادة الثقافة الانسانية والفلسفة ، لا أن ينحصرا في شهادتين جديدتين مستقلتين ؟ واذا كان المقصود من هذين الفرعين « الاختصاص » وليس « التوجيه نحو الاختصاص » فهل يعقل أن يتم مثل هذا الاختصاص على مستوى الشهادة الثانوية ؟ وما هي حقول العمل التي يمكن أن تنفتح أمام خريجي هذه الشهادات ولبنان في وضع يصعب معه استيعاب جميع حاملي الشهادات الجامعية ؟ ان المغالاة في التقسيم لا تفيد الطالب لا لجهة « توجيهه نحو الاختصاص » ولا لجهة « اعداده للحياة المدنية الاجتماعية » أو « تزويده بثقافة عامة » • ثم انها تفتح الباب واسعا أمام دعوات أصحاب الاختصاصات الاخرى ومطالبتهم بافتتاح فروع جديدة ولو على سبيل المساواة ، ولهذا لا يستبعد أن يحتج طلاب التربية مطالبين بثانوية تربوية ، أو طلاب التمريض مطالبين بثانوية تمريضية ، أو طلاب المسرح والتمثيل مطالبين بثانوية مسرحية والى اخره •

لهذه الاسباب كلها نتقدم باقتراحنا حول التقسيمات والمناهج :

أولا — ان تحدد الموضوعات الدراسية في ثلاثة أنواع أو حلقات على أن يكون النوع الاول ، وندعوه هنا **الحلقة المحورية** ، مشتركا لجميع الاختصاصات ويتضمن موضوعات اللغة العربية وآدابها والرياضيات والعلوم ودراسة المجتمعات المعاصرة ، والنوع الثاني ، وندعوه **الحلقة المتوسطة** ويتضمن موضوعات يترك للطالب أن يختار منها ما يشاء حسب رغباته وميوله كاللغات الاجنبية وآدابها ، والفلسفة والفنون الجميلة والتاريخ والجغرافيا ، مع الاشتراط أن تكون هذه المواضيع غير تلك التي يختارها للاختصاص في الحلقة الاخيرة • والنوع الثالث وندعوه **الحلقة الاختصاصية** ويشمل موضوعات الاختصاص التي يطلب دراستها من جميع من يود الاختصاص في الفرع •

ثانيا — أن تقسم الموضوعات على مراحل السنوات الثانوية الثلاث على الشكل التالي : **في السنة الاولى** تشكل الموضوعات المحورية نصف مجموع الموضوعات لجميع الاختصاصات دون تغيير أو اختلاف في المضمون • بينما تشكل الموضوعات المتوسطة ربع الدروس والموضوعات الاختصاصية الربع المتبقي • في **السنة الثانية** تنال كل من الموضوعات المحورية والمتوسطة

والاختصاصية ثلث مجموع الدروس في جميع الاختصاصات . أما في **السنة الثالثة** والاخيرة فتنال الموضوعات الاختصاصية نصف الدروس بينما تنال الموضوعات المحورية ربعا والموضوعات المتوسطة الربع الاخر .

ثالثا – أن تقسم المرحلة الثانوية الى **أربعة** فروع فقط يؤدي كل منها الى شهادة ثانوية نهائية ، وهذه الفروع أ – **العلوم الانسانية** ، ب – **العلوم الاجتماعية** ، جـ – **العلوم التقنية – المهنية** ، د – **العلوم الفيزيائية والطبيعية** .

ماذا نفهم من هذه التقسيمات ، وهل تمتاز ، عن تلك المقترحة في مفكرة الوزارة ، واذا كان الجواب ايجابا فبأي شيء تمتاز عنها وكيف ؟

أولا – انها تتصل بالدراسات الجامعية اتصالا عضويا . فبالامكان التقرير، على أساس هذه التقسيمات ، أن الطالب الذي ينوي التخصص في الاداب أو اللغات أو الفنون على مختلف أشكالها أو الفلسفة ، يجب أن يكون حائزا على شهادة العلوم الانسانية ، والطالب الذي ينوي التخصص في الحقوق أو الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة أو التربية أو علم النفس أو التاريخ والجغرافيا ، أن يكون حائزا على شهادة العلوم الاجتماعية ، والطالب الذي ينوي التخصص في الزراعة أو الهندسة على مختلف أشكالها أن يكون حائزا على شهادة العلوم التقنية – المهنية ، والطالب الذي ينوي الاختصاص في العلوم الفيزيائية والطبيعية أو الطب أن يكون حائزا على شهادة العلوم الفيزيائية والطبيعية .

ثانيا – انها من التشابك فيما بينها والتلاقي في المواضيع بحيث انها لا تمنع على الطالب الانتقال من فرع لفرع أثناء دراسته واكتشافه **لمؤهلاته خاصة** في السنتين الاوليين . ثم أن لمثل هذا التشابك والتلاقي في بلد كلبنان فائدة كبرى هي تعميق الانسجام في التفكير والاتجاهات بين مختلف فئات الشعب .

ثالثا – انها في حين تكفي لاعداد الطالب لدخول الجامعة والاختصاص فهي في الوقت ذاته لا تمنع عنه ثقافة عامة تكسبه المرونة وتساعده **على التكيف وفق** حاجات العمل ان لم يتسن له دخول الجامعة .

قبل أن تتخذ هذه الاقتراحات طريقها الى التنفيذ لا بد من العمل بتمعن وروية لصياغة مضامين هذه التقسيمات باتجاهين **عمودي وأفقي** بحيث يتأمن عن طريق الاتجاه الاول استقلال كاف وشخصية متميزة لكل فرع من الفروع الاربعة ، كما يتأمن عن طريق الاتجاه الثاني ، توافق وتلاق بين جميع الفروع وفق اطار ثقافي موحد . ومثل هذا العمل طويل ومعقد ويستدعي استعراض مختلف المواد الدراسية وتفصيلاتها وصياغة التقسيمات الاربعة بشكل مسهب .

لقد تطرقنا في هذه الاراء الى المقترحات التي وردت في مفكرة الوزارة الى لجنة المناهج ولم نتعدها لنبحث في بقية المشكلات التي تعترض سبيل التعليم في لبنان . وهذه المشكلات كثيرة ، ونعرف أن الوزارة ولجنة المناهج مهتمتان بالتصدي لها . انما نتصور أن معالجة الناحيتين اللتين تحدثنا عنهما هنا ،وهما ناحية **الهرم التعليمي وتنويع الشهادات الثانوية** ، والخروج بقرارات سليمة بصددهما من شأنه أن يدخل الوزارة الحاضرة في تاريخ الحكومات اللبنانية على أنها الوزارة التي وضعت فعلا أساسا لقيام لبنان جديد .

منير بشور (بيروت)

جليل القيسي

جيفارا عاد ، افتحوا الابواب

(مسرحية بفصل واحد)

الى هناء الشيباني التي بحثت في التحرير والفداء عن كمالها البشري • الى هناء التي نافستني في حب جيفارا اقدم مسرحيتي •

(ظلام • تسمع موسيقى شعبية تعزف برفق • بعد لحظات يسلط ضوء أحمر خفيف على وجه جيفارا حتى أسفل العنق • السيكار في زاوية فمه • يطلق موجات خفيفة من الدخان • يسمع صوت نسوي واضح وان كان يأتي من بعيد •)

الصوت : ارنستو • ارنستو • (صمت ، يسمع صدى كلمة ارنستو) •

جيفارا : (يستمر الضوء على وجه جيفارا • يلتفت جهة الصوت • يخرج السيكار • ينتبه جيدا • يبتسم • لنفسه) انه صوت والدتي • (ينادي) من هناك ؟

الصوت : أنا يا ارنستو •

جيفارا : (يغمض عينه الواحدة • يستمر في رسم الابتسامة على وجهه •) ماذا تريدين ؟

الصوت : (بجرس حزين) بل أنت ماذا تريد في النهاية • هل ستبقى جو"الا ؟

جيفارا : جو"الا ؟ لا تقولي هذه الكلمة •

الصوت : ألا يكفي • قل ، يا ارنستو ماذا تريد في النهاية ؟

جيفارا : اسمعي ، لن أستطيع بعد الآن أن أعيش في ذلك الركن الهادىء ، المبتذل بالنعمة • اتركيني ••

الصوت : (يزيد الصوت حنانا) لكن ماذا تريد في النهاية ؟

جيفارا : أعرف ماذا أريد • (صوت أقدام) لن يفيدك الاستجداء •

الصوت : لكن ألا تخبرني ماذا تريد في النهاية ؟ ثم ألا يكفي ؟
جيفارا : أريد كل شيء أو لا شيء · اريد أن تلذ الحياة لكل انسان ·
الصوت : وهل تستطيع ذلك حقا وسط هذا الخراب ؟
جيفارا : المهم انني ألقيت على عاتقي جميع أنواع الالتزام ·
الصوت : لماذا أنت ؟
جيفارا : لا تسأليني لماذا أنا · لم تعد هذه العاطفة البرجوازية تثيرني · اسمعي، ما كان بوسعي أن أعيش مخاصما نفسي · (بصوت عال) انسي ارنستو، وخففي من حمّى حواسك · ارنستو لم يعد موجودا · اذهبي (صوت أقدام) لا تتسلقي السراب ·

(يذبل الصوت ، ويسمع صدى بعيد · تستمر الموسيقى الشعبية · يختفي الضوء الاحمر من وجه جيفارا · ظلام · ضوء فانوس ووجه بلون النحاس المطروق ، ثم وقع أقدام في الطين · يدان طويلتان تنبشان في الطين · يتقدم شبح طويل في اتجاه ضوء الفانوس · يضيع ضوء الفانوس · بعد قليل يسلط ضوء بلون الفجر ·)

القس : (الى فلاح منهمك في نبش الطين ·) لماذا أطفأت الفانوس ؟ حتى في الليل تجمعون السراطين ·
الفلاح : (يرسل نظرة طويلة الى القس) ألا يجب أن نأكل · انها حيوانات بريئة تخرج في مثل هذا الوقت للتجوال ·
القس : جرب أن تأكل شيئا آخر ·
الفلاح : أنا سيدي القس لا يأتيني الاكل على طبق من الفضة مثلما يأتيك (بسخرية) والغريب ان كلا منا أكثر نحولا من الافعى ·
القس : أنا الآخر لا أتناول سوى وجبات ميتة ·
الفلاح : تصومون برضاكم ، ونصوم مرغمين ·
القس : (يطلق ضحكة) عودونا على الصوم ·
الفلاح : (بسخرية) كلانا بأمر الدين على ما أظن ·
القس : (باندهاش) جمعت كمية كبيرة من السراطين ·
الفلاح : لحمنا الوحيد ·
القس : ألم تجرب عملا آخر ؟
الفلاح : أين مثلا ؟ هل تقبلونني في الكنيسة ؟
القس : في المدينة، في احدى الورشات ·
الفلاح : لا أعرف الا الحرث والزرع · حتى هذا العمل الذي أجيده لا أحصل عليه هنا ·
القس : اعمل شيئا آخر ·
الفلاح : آه ، يمكن أن أجد عملا بسيطا واحدا ، ولكنه يحتاج ··· (يصمت)
القس : يحتاج الى ماذا ؟
الفلاح : أوه ، لا يحتاج الى شيء · سأقوم به ذات يوم · أشتم الكنيسة ،

وجنرالا ، لا على التعيين ، ثم الدولة ، وادخل السجن ، وأعيش هناك على نوع آخر من الحساء والخبز .

القس : لو كنت في مكانك لقذفت الدولة بألف شتيمة .

الفلاح : (ينهض ويقترب من القس) أنت قس ديمقراطي .. هل تستطيع أن تشتم الكنيسة ، وجنرالا ؟

القس : لو عشت طوال حياتي على السراطين لما تركت كلمة واحدة الا قلتها للكنيسة .

الفلاح : تشجعني ان أقول ، ان الكنيسة هي مبعث مآسينا .

القس : (بلا مبالاة) قل أكثر .

الفلاح : يعيش فيها غربان ينقلون دخان التخدير للناس جميعا .

القس : أكثر .. أكثر .

الفلاح : ويشاركون الدولة في ظلمنا .

القس : أكثر ياأخي .

الفلاح : (ضاحكا) لا أجيد الشتم أكثر من هذا . (ظلام . يسلط الضوء الاحمر نفسه على وجه جيفارا ، في حين يعود الضوء الشبيه بالفجر الى القس والفلاح . يدخل شاب بملابس القتال نطاق الضوء المسلط على القس والفلاح .)

الشاب : (بفرح) أوه ، أرمان انها حصيلة كبيرة .. يا لها من سراطين كبيرة .

أرمان : (يندفع ليحتضن الشاب) معذرة يا روبير يداي موحلتان .

روبير : احتضني . هل تخاف ان تلطخ بدلتي . يا لك من فكاهي .

ارمان : متى وصلتم ؟

روبير : الآن . هل كنت تعمل في الظلام ؟

ارمان : كلا .. أطفأت فانوسي عندما اقترب هذا القس . انه قس رائع .

(يتبادل القس وروبير نظرات طويلة . موسيقى خفيفة .) كنت أتهجم على الكنيسة ، وهو يستمع الي بلذة .

روبير : وماذا يعمل قس في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل هنا .

ارمان : يهربون أحيانا من بين جدران الكنيسة .

القس : (مقاطعا) أو لنلتقي بمقاتلين من أمثالكما .

ارمان : انه قس متحرر ، وديمقراطي .

روبير : (يطلق ضحكة عالية ، ويلتفت صوب الضوء الاحمر .) تشي ، تشي هل سمعت بقس متحرر وديمقراطي ؟

جيفارا : (من نطاق الضوء الاحمر) سمعت عن قس ثوري . ألم تسمع عن كاميليو توريس . (بأسف) من هناك غير ارمان تكلمه ؟

روبير : قس .

القس : (بانشداه) هل تشي هناك ؟

روبير : هل تعرف تشي ؟

القس : شخصيا ؟ كلا .. لكنني دائما عرفته بقلبي .

جيفارا : (يرى القس • يدخل جيفارا نطاق الضوء • يقترب القس منه) عم تبحث في هذا الوقت من الليل ؟

القس : قيل لي انك ستأتي لهذه المنطقة في مثل هذا الوقت •

جيفارا : (بوجه متجهم) من ؟

القس : المهم جئت لاراك •

جيفارا : ماذا تريد ؟

القس : أريد أن أحمل السلاح معكم •

جيفارا : لماذا ؟

القس : ألم تعرفوا السبب عندما حملتم السلاح • أيها الرفيق ، يوم دخلت الكنيسة كنت أبحث عن جوهري كانسان في الدين • غير انني اقتنعت عبر التجارب ، انه معكم في الموت •

جيفارا : (يرتاح لكلام القس) اقترب • (يقترب القس •) أنت قس نحيل •

القس : من العذاب أيها الرفيق • عذاب الضمير ، وهذا الضحك المستمر على الشعب • هل يعقل ان يؤمن الانسان ، في هذا العصر بالذات ، بأن الرق كما قال القديس اوغسطين عقاب على الخطيئة ، وأن تكون تمردا على ارادته محاولة الغاء هذا الرق • وهل ثمة رق أفحش من ذاك الذي في نصف قارتنا •

جيفارا : (يطلق ضحكة ساخرة) لطيف جدا ايها القس • وهل تريد حقا ان تتمرد على ارادته ؟

القس : وهل يبقى الرق كعقاب على الخطيئة • ثم أية خطيئة ايها الرفيق •

جيفارا : هل سمعت بكاميليو توريس ؟

القس : أنت وهو الهمتماني • أرجوك علمني حمل السلاح •

ارمان : اخلع هذه الجبة أولا •

جيفارا : (يرسل نظرة حادة الى أرمان •) أتعجب كيف أصبحت قسا ؟

القس : أيها الرفيق ، الانسان قد يصبح أي شيء اذا اقتنع • كنت في مستهل حياتي أتصور ان الدين هو الاحتجاج الحقيقي ضد الشقاء • ثم اتضح لي، انه احتجاج على كل مفهوم احتجاجي من أجل ازالة الشقاء • (يبتسم القس ، ثم يضحك •)

جيفارا : لماذا ضحكت ؟

القس : لانني سعيد • بل لم أحس بالسعادة قدر احساسي بها الآن • فرحت كثيرا عندما دخلت الدير • وفي غمرة انشغالاتي ، واجتهاداتي الدينية ، كنت أتصور ان السعادة هي في امتلاك الله في الداخل• (يهز رأسه) لكن، هل حقا يمكن أن يمتلك الانسان سرابا ، أو مجرد وهم بشري في داخله•

جيفارا : تعجبني جدا هذه المحاولة الصعبة في التغلب على تربيتك السابقة •

القس : حكيم جدا أنت أيها الرفيق •

جيفارا : أبدا •• لست كما يصورني البعض • أنا مقاتل ، ولست فيلسوفا •

القس : أجل ، لكنك تقول القليل وبعمق • صحيح انني مثل الانبيق الذي يقطر

فيه الصيدلي مواده الكيماوية ، قطروا في داخلي أفكارا كثيرة · قبل أن أجيء الى هذه المنطقة حاربت نفسي كثـيرا · أو ربما ساعدتني قراءاتي الكثيرة في غير اللاهوت أن أجد نفسي أكثر ·

جيفارا : رائع · (يلتفت جيفارا حوله) انه لشيء جميل أن يدخل الواحد في حوار فكري بعد منتصف الليل وفي هذا المستنقع الطيني ·

القس : ألا نجلس في مكان لنتكلم اكثر ؟

جيفارا : أحب الوقوف · حاول أن تتعلم الوقوف لساعات طويلة ·

القس : هناك ، تعلمت أنواع التقشف · بين تلك الجـدران حيث عملية اسكار الجسد بالحماسة ، وتلك الاهتمامات النافلة بالمصائب ، والآخرة علمتني أنواع الصوم ، والتحمل ·· تعرف حياة القساوسة ·

جيفارا : أعرفها ·· اسمع ، هل تعتقد بعد تلك التربية ، انك لن تندم لانـك التحقت بنا ·

القس : لم الندم وبوليفيا تعيش في الخوف والجهـــل · لم الندم وأنا جئتكم بنفسي ؟

جيفارا : مجرد سؤال · انه لشيء رائع أن يموت الانسان مطمئن الضمير ·

القس : أيها الرفيق تشي ، أعتقد ان وجود أنبل الاشياء في أيدي ثلة من رجال الاعمال ، والمقامرين في نصف قارتنا المطمورة برمال الضياع ، يجعل الواحد منا يحس أن اكثر الاشياء سخاء هو التضحية بحياته ·

جيفارا : (الى روبير) روبير أعطه رشاشا · (يقدم روبـــير رشاشـا للقس · يستلمه القس · بعد أن يتأمل الرشاش)

القس : آمل ، أيها الرفيق أن أكون عند حسن ظنكم ·

جيفارا : في خطوط النار سنتعرف عليك أكثر ·

القس : بل أضيف أيها الرفيق ، آمل أن نتعارف في خطوط ابعـــد من فـكرة الموت · (تسمع أصوات أقدام ، وأغنية شعبية تأتي من بعيد)

جيفارا : (لارمان) من ؟

ارمان : الفلاحون ·· في طريقهم الى العمل ··

القس : تأمل أيها الرفيق كم من الاجيال البائسة عاشت وماتت في المستنقعات وعلى هذه الارض ·

جيفارا : (متنهدا) كثيرون ··

القس : هل سمعت بسانت اكزوبري ؟

جيفارا : يعجبني هذا الكاتب ·

القس : قال مرة : الفلاح لا الروائي هو الذي يحس أكثر من غيره بشعر الارض ·

جيفارا : ثم يقدم قصائد الارض الغنية على طبق من الفضة للحثالة ·

القس : تلك هي المأساة ·

جيفارا : (لارمان) تهيأ يا أرمان · وأنت يا روبير ضع الســـراطين في كيس لننطلق · (الى القس) تذكر هذه البداية ·

القس : أذكر جيدا بدايتك ، وكلماتك الدافئة أثناء تعرفك بكاسترو في بيت آنا ماريا ٠
جيفارا : البداية ٠ وعندما تقترب النهاية تـذكر الواحد بأكثـــر من حنين ٠

(يبتسم للقس ٠ يلتحق القس بروبير ٠ يرجع ارمان ٠)

أرمان : انه فرح جدا ٠
جيفارا : فرح الابطال ٠٠ اذا لم يخني الحدس ٠
ارمان : هل سندربه على الرمي ؟
جيفارا : وعلى السير الطويل ، وتسلق الجبال ، والجري ٠ افسح له المجال ٠٠ يعجبني هذا القس ٠ يا أرمان ، يبدو ان كاميليو توريس أشعل فتيلة جديدة في الكنائس ٠
أرمان : أعجبتني لغته ٠
جيفارا : الجميل هو انه يستلهم الاشياء الثورية من فكره المثالي ٠
ارمان : انه نحيل جدا ٠ (يدخل روبير ٠)
روبير : (لارمان) التحق بالقس ٠٠ (يذهب ارمان ٠) يبدو ان الكنيسة علمته منتهى الهدوء ٠ أعجبتني جملة اكزوبري ٠
جيفارا : كم تمثل الحقيقة ٠ بل أكثر من حقيقة يا روبير ٠٠ (يرجع القس ٠)
القس : ايها الرفيق تشي ، ترى من الذي سيصدقنا لو قلنا اننا كنا نتكلم عن أكزوبري وسط مستنقع طيني ، والرفيق ارمان مثل مالك الحزين ينبش في الطين عن السراطين ، والفجر على وشك ان ينبلج ٠
جيفارا : كل شيء بالنسبة الى الذين لم يجدوا كمالهم البشري وجوهرهم ، يصبح حقيقة ٠
القس : هل تقصد ان الانسان في الموت يكتشف جوهره البشري ؟
جيفارا : ربما عند البحث عن الموت بوعي من أجل الاخرين ، أو من أجل هدف شريف ٠
القس : (يبتسم) من جديد ذكرتني بكلمة أخرى لاكزوبري ٠ قال : الحب لا يتحقق بأن ينظر كل منا الى الآخر ، بل بأن ننظر معا في اتجاه واحد ٠
جيفارا : لننطلق اذن ٠

(موسيقى درامية ٠ يسلط ضوء دائري أحمر على صورة لجيفارا على جدار طيني ، وتحت الصورة رقم ٢٠٠٠ر٢٠ بيزا ثمن لرأس جيفارا حيا أو ميتا ٠ يسمع خوار أبقار ، وثغاء خرفان ، وأصوات متناثرة ٠ تتوسع دائرة الضوء برفق ٠ يدخل فلاحان وامرأة قروية وصبي نطـاق الضوء الاحمـــر ٠ تنقطع الموسيقى الدرامية ٠ تسمع موسيقى من قيثارة ٠)

الفلاح الاول : صور هذا الانسان غطت جدران القـــرية ٠ لم يحدث ان قدمت الحكومة مثل هذا المبلغ الخيالي ثمنا لرأس انسان واحد ٠
الفلاح الثاني : (رجل كهل) أمثال هذه الرؤوس كانت غالية الثمن ذات مرة في

المكسيك ، وفنزويلا ٠

الفلاح الاول : هل هم سحرة ، أم ماذا ؟

الفلاح الثاني : كانوا يقولون ان لزاباتا الأمي الذي جر وراءه جيشا من الفلاحين ، قوة السحر ٠

الفلاح الاول : ماذا كان زاباتا هذا ؟

الفلاح الثاني : انسانا ، لكنه كان يـــريد أمثالنا من مدبوغي الجـــلود تحت الشمس ، والمتعفني الدماء من لحم السراطين ان يعيشوا بشرف ٠

المـــرأة : (وهي توزع نظراتها بين صورة تشي ، والفلاح الكهل ٠) أين هو الآن ؟

الفلاح الثاني : حتى لا قبر له ٠٠ أمثال هؤلاء لا يحصلون حتى على حفرة حقيرة ليدفنوا فيها ٠

المـــرأة : وأين صاحب هذه الصورة ؟

الفلاح الثاني : في مكان ما في الادغال ٠٠ ربما تعود أرواح زاباتا ، وسيمون بوليفار ، وخوسيه ، من جديد الى أرضنا ٠ سترون المزيد من هذه الصور٠

(ظلام ٠ يظهر الطفل الصغير لصق الجدار نفسه ، ومعه ثلة من الاطفال٠)

الطفل : أنا جيفارا ، وأنتم رجال البوليس والجيش ، تطاردونني ٠

الطفل ٢ : (ضاحكا) أنت لا لحية لك ٠٠ ولا شارب ٠

الطفل : لا بأس ٠ طاردوني ٠

الطفل ٣ : قبل ان نطاردك يجب أن تختفي ٠

الطفل : سأختفي ٠

الطفل ٤ : سنطلق عليك الرصاص ٠ (يخرج من فمه أصواتا من الاطلاقات)

الاطفال : (بصوت واحد) ظهر جيفارا ، اتبعوه ٠ (ظلام)

(المنظر السابق نفسه بدون المرأة والصبي ، والفلاح الاول ٠ الفلاح الثاني يتأمل بحزن صورة جيفارا ٠ يدخل عسكري ، ويقترب من الفلاح الثاني ٠)

العسكري : (هازا رأسه أمام الصورة) مبلغ كبير ، أليس كذلك ؟

الفلاح الثاني : كبير ، لا شك ٠ لكن أين الرجل الذي يستطيع الاقتـــراب من مكانه ؟

العسكري : (بلامبالاة) كثيرون ٠

الفلاح الثاني : أخشى أن يقبضوا طلقات على صدورهم بـــدلا من الـ ٢٠٠٠٠ر٢٠ بيزا ٠ أيها العسكري ، يقولون ، وأنا لم ار طبعـــا شخصيا ، انه عندما أطلقوا على زاباتا اكثر من خمسين طلقة مد يده مع ذلك الى بندقيته ٠

العسكري : من يكون زاباتا هذا ؟

الفلاح الثاني : رأس آخر كان له الثمن نفسه ٠

العسكري : (يترك الفلاح بعد ان يرسم على وجهه علامة خوف ٠) ٠٠٠

(صف من صفوف الجامعة ٠ لا أحد في الصف ٠ صورة بالطباشير لجيفارا

وتحت الصورة هذه الجملة : حوصر جيفارا ، واستشهد مع رفاقه السبعة عشر ٠ تدخل ثلة من الطلاب ، ويتبعهم بعد قليل استاذ ٠ يلقي الاستاذ نظرة سريعة الى السبورة ٠)

الاستاذ : (بعد ان يتأمل الطلاب ٠) قلنا في المحاضرة السابقة ، ان بوسع الفرد في جميع الظروف أن ينمي ملكاته الذاتية ، وأن يكون حرا حتى بمعزل عن الآخرين ٠

طالب : لا تصبح حرية الفرد ممكنة الا بين الجماعة ٠ ذلك أن ممارسة الاشياء التي هي معيار الحقيقة ليست فردية بل جماعية ٠

طالب ٢ : ولهذا قتلوهم جميعا في الادغال ٠

طالب ٣ : وبوليفيا حزينة أكثر من اللازم ٠

طالب ٤ : نرجو أن يترك الاستاذ الصف ليسمح لنا أن نقف حدادا على روح جيفارا ، وأن يريح آذاننا من فلسفته المثالية (صراخ ، حوار ، مناقشة ٠ يخرج الاستاذ ٠ يملأ الطلاب السبورة بعشرات الشعارات ٠ ظلام ٠ هدير ماكنة هيليكوبتر ، طلقات سريعة ومتقطعة ٠ أضواء كاميرات تلمع في الظلام ، وجه جيفارا وهو ميت ٠ يسلط ضوء بلون الفجر على القس ٠ يتقدم القس الى مقدمة المسرح ضمن دائرة الضوء ٠)

القس : لم يبعثني جيفارا كي أشرح ٠ تعرفون كلكم ، انه استشهد ٠ تعلمت منه ، ومن رفاقه ان التضحية بالنفس نوع من الحب يطهر الانسان من أشياء كثيرة ٠ اتهموه بالمغامر ٠ ليكن ٠ كان مغامرا أمميا ٠ انتم ايها السادة تعرفون جيدا بأن للنصر آباء كثيرين ، أما الهزيمة فطفل لقيط ٠ لست أعرف أي عسكري قال هذا الكلام ٠ كان ارنستو يريد أن يرى باصرار حياة الحياة ٠ في حياة الخطر تضامنت معه ضد الموت ٠ لنتضامن الآن لا ضد الموت وحسب ، بل كذلك مع أفكاره ٠ أذكر ، انه قال لي نقلا عن كاتب فرنسي نسي اسمه : أيها القس ، الوفاء الحقيقي هو ان نحتفظ لا بالرماد من تراث الاقدمين ، بل بالشعلة الحية التي أوقدوها ٠ وأنا لا أطلب أكثر من ان تبحثوا في الشعلة الحية التي أوقدها هو ٠ كان تشي ارادة بسيطة ٠ أقول بسيطة ، ذلك لانه كان انسانا قبل كل شيء ٠ غير ان تلك الارادة البسيطة ، والفولاذية ، أرادت أن تحقق في العالم عملا له قيمة حقيقية ٠ لنر بعضا من تلك القيم ورائحة دمه ما زالت ساخنة ٠ (ظلام)

(منظر ليلي لشارع في نيويورك ٠ باعة الصحف يهرعون ، ويصرخون : اقرأوا موت قديس أمريكا اللاتينية ٠ اقرأوا حياة الطبيب ، والمتمرد الجوال ٠ صورة على الصفحة الاولى لجريدة ٠)

امرأة أمريكية : واو ٠٠ واو ٠٠ يا لشكله الرائع ٠

امرأة أمريكية ٢ : أهو هذا ٠٠ عيناه أكثر من جميلتين ٠

(أصوات : اقرأوا ٠ انتهت حياة الاسطورة تشي ٠) (ظلام ٠)

(ضوء على اجتماع طلابي في بلد اوروبي •)

شاب أشقر : (بحماسة) أيها الاخوة، اذا كان ينقصنا نبي ليلهم ارادتنا ويدفعنا لكي نكون سادة كل شيء ، فها هو تشي جيفارا بكل سلوكه أثبت ذلك •• المجد لتشي •

(تسلط أضواء على صور لتشي تتصدر مظاهرة • ظلام • شارع فرعي في دمشق • فدائي ملثم يلصق منشورا على جدار ـ عملية تشي جيفارا • ظلام • المظاهرة نفسها • صور تشي ، وهوتشي منه ، وماو • هتافات • وقع أقدام تصادم •

يخيم صمت على المسرح للحظات • يسمع الصوت نفسه كما في بدايـــة المسرحية • موسيقى خفيفة •)

الصوت : لكن ماذا تريد في النهاية يا ارنستو ؟

جيفارا : (دون أن يظهر هذه المرة) أعرف ماذا أريد • لن يفيدك الاستجداء • اريد كل شيء أو لا شيء • اريد ان تلد الحياة لكل نسان •

(يتلاشى الصوت • تسلط ثلاث دوائر من الاضواء البنفسجية على صور جيفارا على جدار طيني • يقترب القس من الصور ، وهو يرتدي ملابس قتال •)

القس : أيها السادة • ربما الآن تتفقون معي ، بأن البطولة تنمي الفرد وتوسع كثافة الحياة ، وتقرب الانسان الى أعماق الانسانية • تعرفون جيدا أنه ليس بوسع كل واحد أن يقول للواقع الذي أعطي له لا •• واذا استطاع ، ومن ثم دفع حياته ثمنا لكلمة لا ، يصبح مثل نبع اميليه الذي قال عنـــه أفلاطون لا يمكن لوعاء أن يمسكه • ان تشي أصبح مثل نبع اميليه لا يمكن لوعاء أن يمسكه •

يوم التقيت به في المستنقع مع ارمان وروبير ، وبعد ان انطلقنا ، أجرت الشرطة تفتيشا ، وتعذيبا دمويا في كل مكان في تلك القرية المسكينة ، حتى ان بعض أفراد القرية من فرط التعذيب أصيب بأمراض الهلوسة ، والجنون ، ورؤية الكوابيس • يمكنكم أن تدخلوا بيت الفلاح بيترو لتروا جانبا من ذاك الكابوس • (ظلام •)

(غرفة عائلة فلاحية كبيرة • نافذة في الجانب الايمن • على الجدار المواجه للجمهور صور للمسيح ، والعذراء ، ولبعض القديسين • تتكون العائلة من الاب بيترو وهو رجل كهل ، ولينا زوجته عجوز بعمر الزوج • ريكاردو وهو شاب وسيم يعمل مع أخيه الفونسو في المزرعة • ماريا ابنة بيترو في العشرين جميلة وحيوية • العائلة كلها في حيرة ، واضطراب ، وخوف ، ما عدا ريكاردو وماريا يحاولان تخفيف الاضطراب عن الاب ، والام •)

بيترو : (بذهول وهو يلطم جبينه) لو عرفت من الذي نشر الخبر في القرية كلها •

لينـــا : (هازة رأسها) لم نحن دون هذه القـــرية ؟ (بصوت حزين) لماذا زارنا نحن ؟

ريكاردو : (صارخا بغضب) كل يوم من الصباح حتى المساء هذا الصراخ • لماذا زارنا نحن ، أو لماذا لم يزر بيتا آخر • زارنا وانتهى • (يحاول ان يخفف من هياجه) ماذا ، انه استشهد قبل أكثر من اسبوعين • افهمي • ما هذا الهوس المجنون • ربما تخيلته أمس أكثر من اللازم ، وتذكرت كيف عذبوا أندريوس الذي باعه الدجاجات قبل استشهاده عندما زار القرية ، ثم تصورت ما الذي سيحدث لك ، ولي ، ولوالدي لو زارنا • أليس كذلك ؟ ثم أمس كان عيد جميع القديسين ، ربما تخيلت شكله ومن ثم حلمت به وهو يزورنا ويريد شراء بعض الحاجيات • انه مجرد وهم •

لينـــا : (بفزع) وهم ؟ رأيته بعيني • خاطبني ، بل حتى مس شعري بيده •

ريكاردو : وهم •• وهم يا ماما • في يوم جميع القديسين بؤساء من امثالنـــا يصلون ساعات طويلة ، ويتخيلون وجوه القديسين • ألا يشبه وجهه واحدا من القديسين ؟

لينـــا : لكنه خاطبني •

ماريا : (زاعقة) خاطبك • ثم ماذا ؟ أهو دنس ؟

بيترو : (متدخلا) ماريا ••• ماريا • انك بهذه الصلافة ستجلبين لنا الموت •

ماريا : ماما قتلتنا بخوفها قبل أن تموت فعلا •• ثم أي ضير في أن يدخـــل شبح بيت انسان ؟

بيترو : الشرطة •• الجيش •• عما قريب سيأتون للتحقيق معنا •

ماريا : (بغضب) لانك روجت ، وأفهمت القرية انه جاء يطلب مواد غذائية • بابا افهم ان الرجل استشهد • انه ليس مثل المسيح الموعود بالمجيء • انه باختصار استشهد •

بيترو : سمعت بعضا من الفلاحين يقولون ان الشرطة ستحقق معنا •

ماريا : ليحققوا • (تبصق) ان وساوسهم ، ورعبهم أكثر منك ، ومن ماما • ثم من أي شيء خائف أنت ؟ من بقراتنا الخمس ، أو من قطعة أرضنـــا التي تنتج قليلا من التبغ ، أم من مصيرنا ؟

بيترو : الشرطة ظالمة • فكري في مصير اندريوس الذي باع له الدجاجات • ان مصيره مجهول ، بل قتل • (الى زوجته) بنت الكلبة لماذا خرجت وزعقت في الازقة • أما كان بوسعك أن تصمتي •

لينا : خفت ألا يراه أحد عندنا •

بيترو : (يضرب رأسه بكلتا يديه) سيصادرون أرضي ، وبقراتي •

لينا : ويقلبون البيت كله على رؤوسنا •

ريكاردو : (صارخا) لا يمكن أن يحدث مثل هذا الجنون في البيت بمجرد حلم سخيف • شبح زارنا في حلم امرأة عجوز ، والشرطة تريد أن تحقـــق

معنا • أتسمي هذه حياة ؟ أنا والفنسو نعمل أكثر من النور من الفجر حتى المساء ثم لا نجد الراحة في البيت •

بيترو : ماذا لو حرقوا بيتنا ، وصادروا الارض ، والبقرات •

ماريا : نهجر الى المدينة •• ريكاردو رجل ، والفنسو رجـل وبوسعهما أن يعملا • يمكنني أن أعمل أنا الاخرى • رباه ، هذه البقرات وقطعة الارض حولتنا الى عفونة ، وكومة جبن •

لينا : كل هذا من أجل لا شيء •

ريكاردو : لا شيء • انها تهرف من أجل لا شيء وتهذي في القرية •

بيترو : لكنه زارنا ، والقرية تعرف ذلك •

ريكاردو : اسمعوا ، لتأت الشرطة ، انا الذي يتكلم • أنا المسؤول •

لينـا : (بحنان) أوه ، رفقا بشبابك •

ريكاردو : اللعنة على شبابي الذي يتعفن مع الابقار ، وأوراق التبغ ، وهــذا الهوس •

ماريـا : (بحيرة) ايها المسيح •• هل يعقل حقا أن يحول الانسان وهمـا الى مثل هذه الحقيقة ؟

الفنسـو : اندريوس باع دجاجات لجيفارا ثم غاب مثل لقمة الخبز • وهــل نحن اندريوس ؟

بيتـرو : حتى تثبت انك لست اندريوس ، او لم تبع شيئا له ، تكون قــد ذبت في حامض الكبريت •

لينـا : رجل يضعون ٢٠٠٠٠ بيزا ثمنا لرأسه ، والحكومة مثل النمــل منشغلة بمصير هذا الرجل ، فاذا به يدخل بيتك • ما الذي يمكنك ان تقوله للشرطة ؟

ريكاردو : لكنه لم يدخل • تصوري ببساطة لم يدخــل ، ولن يدخل • انه استشهد ••

ماريـا : (بحزن ، لكن بجفاف) مجــرد شبح وضعنا على حافــة موت • (صارخة) ماما ، الا يكفــي • (صمت قصير) من الذي روج هــذه الشائعة ؟

لينـا : أنا •• لانني خلته المسيح في البدء •

ماريـا : وهل رأيته فعلا ؟

لينـا : (وهي تمثل المشهد) اسمعي • دفع الباب ودخل بهدوء ، وجلس على هذا الكرسي الذي كثيرا ما يجلس عليه والدك • (يحدق بيترو فـي الكرسي بخوف) ابتسم لي • ولاكثر من دقيقة حاولت أن أعرف من يشبه من القديسين • ابتسم مرة أخرى ، ووضع يده اليسرى على صدره • نهض ، واقترب مني ، ومسد شعري • قبلت بركاته • لكنني رأيت مسدسا يتدلى من حزامه ، ورشاشه فوق كتفه • صرخت • طمأنني • لكنني من خوفي تركت الغرفة ورحت أهذر لاشعوريا خارج البيـت • قالوا لي انه •••

ريكاردو : (مقاطعا اياها) ماما ، يا لاحلامك الكثيرة • لكن لماذا أخبرت النساء في القرية بهذا الحلم ؟

بيترو : ريكاردو ، اما ان تهزأ فلا •• حسنا ، زارني مساء أمس وطلب مني أن أبيعه قليلا من الخبز •

ريكاردو : ماذا قلت له ؟

بيترو : رجوته أن يتركنا بسلام •

ريكاردو : وماذا قال ؟

بيترو : قال انه لا يعرف سببا لخوفي ، وأضاف اننا تحولنا الى كتلة خوف •

لينا : (متدخلة) آه ، نسيت : قال انه جاء لينقذنا من رجال الحكومة • (بخوف) ماذا لو سمعت الشرطة هذا الكلام ؟

ماريا : (بنفاد صبر) ايها الرب ، الى متى هذا الوهم ؟ وهم •• (يسمع هدير سيارة • بعد قليل يدخل شرطي طويل يحمل رشاشا • بعد لحظات يتبعه اخر بعصبية • ينتاب بيترو ، وماريا خوف شديد •)

الشرطي الاول : (الى زميله) اخرجهم من هنا • سوف انادي كلا منهم على انفراد • (يخرج الجميع بصحبة الشرطي الثاني • يقوم هذا بتفتيش دقيق للبيت • يجلس على الكرسي • ويخرج ملفا • ينادي الاب • يدخل بيترو ، ويقف بخوف) •

الشرطي : ما معنى هذه الشائعات التي تروجونها في القرية ؟ لا شك أن لديكم معلومات كثيرة عن بقية أولئك المخربين •

بيترو : (بخوف) نحن لم نروج أية شائعة • (مؤشرا الى صدره) صحيح انني رأيته أمس في بيتي • أراد أن يشتري بعضا من دجاجاتي • لكنني رفضت أن أبيعها •

الشرطي : (محدقا في وجه بيترو بتعجب) وهل جاء حقا الى بيتك ؟

بيترو : أقسم بالمسيح •• بل بدم المسيح •

الشرطي : هل تعرفه ؟

بيترو : هو بلحيته الطويلة ، وشعره الطويل ، وبدلته • أعرفه •

الشرطي : (صارخا) تعرفه !؟ متى تعرفت عليه ؟

بيترو : عندما زارني أمس •

الشرطي : لكنه قتل قبل ثلاثة أسابيع • هل تفهم •• قبل ثلاثة أسابيع •

بيترو : هنا الحيرة سيدي • (يخرج الشرطي صورة لجيفارا ويقربها من عيني بيترو) •• هو •• أجل هو •

الشرطي : (بتعجب) هل تحلم ؟

بيترو : (بخوف) خلتني أحلم في البدء ، لكنه تكلم معي •

الشرطي : هل أخذ الدجاجات بقوة ؟

بيترو : مع انني رأيته يعاني من جوع واضح ، رفض أن يأخذها بقوة • (صمت قصير) طبعا كان بوسعه أن يأخذها بقوة •

الشرطي : هددك ؟

بيتـرو : كلا .. ربت على كتفي بحنان وانصرف .
لشرطي : أتعرف أنك ستلقى في السجن ، اذا لم تقل الحقيقة ؟
بيتـرو : (بذل) هذه هي الحقيقة . أنا لست اندريوس .. انني بيترو .
لشرطي : (وهو يغالب ضحكة قوية) هل ستطرده اذا جاء مرة اخرى ؟
بيتـرو : انه ينصرف بلطف . أقصد لا يترك مجالا لكي يطرد .
لشرطي : هل كانت تلك زيارته الاولى ؟
بيتـرو : (بخوف) زارنا مرة اخرى مع بعض رجاله . لكنه كان يدخل بيتي وحـده .
الشرطي : ماذا كان يريد ؟
بيتـرو : خبزا .. أو لحما ..
الشرطي : (يسجل بسرعة) . اخرج . (ينادي لينا . تدخـل بخطـوات قصيرة ، وتقف) وأنت ؟ متى رأيته اخر مرة ؟
لينـا : أمس . مسد راسي ، واراد أن يقبل كتفي . لكنني رفضت . تصورته للوهلة الاولى قديسا . لكنني عندما رأيت مسدسه ، ورشاشته ..
الشرطي : ماذا قال لك ؟
لينـا : ابتسم .. وعندما تذكرت الصور على جدران القرية ، عرفته . اخبرته أن يترك بيتي ، لان لي ثلاثة أولاد . اخرج هو صورا من جيب قميصه وقال ان عنده ثلاثة .
الشرطي : هل طلب شيئا ؟
لينـا : كلا . أنا أعرف انه مطلوب من قبلكم ، لذا تركت الغرفة وهذيت خارج الدار حتى سمعتني صديقاتي .

(يأمرها بالخروج . ينادي ريكاردو . يدخل ، ويتبادل مع الشرطـي نظرات استفسارية) .

الشرطي : وأنت ؟ متى رأيته .
ريكاردو : رأيته قبل أن يستشهد . مر مع رفاقه من أسفل الوادي .
الشرطي : هل رأيته شخصيا .
ريكاردو : ما كنت أعرف أنه هو . أما بعد استشهاده فعرفت أنه هو .
الشرطي : ماذا تعني بكلمة استشهاده ؟
ريكاردو : الم يستشهد ؟
الشرطي : (هازا رأسه . يسجل بسرعة) . ما وراء هــذه الشائعات التي روجتها والدتك في القرية ؟
ريكاردو : بل أود أن أعرف ما سبب اهتمامكم اللامعقول بزيارة شبح انساز انتهـى ؟
الشرطي : أقصد ، كيف ، ولماذا يختاركم أنتم ؟ ثم لماذا تروج والدتك هـذه الشائعات ؟
ريكاردو : انه الرعب .

الشرطي : من أي شيء ؟
ريكاردو : عندما زار القرية ، فرضتم أكثر من كابوس على أهلهـــا ، حتى ان الواحد صار يخاف من ذكر اسمه لنفسـه ٠ ان والدتي مرتعبـة ٠ أما والدي ، فكلما تذكر مصير اندريوس مـات من الخوف ٠ اجراءاتكم هي التي خلخلت والدتي ٠٠
الشرطي : (بغضب) لا تتصور انني أمزح ٠ في أية ساعة يزوركم ؟
ريكاردو : انه مجرد وهم ، وخوف ٠ لقـد هجر كما تعرف بعض الفلاحـين أراضيهم بعد أن تبين لكم بأنه مر بهم ، أو تعامل معهم ٠ انها تلـك الاجراءات القاسية التي اتخذتموها بحق البعض هي التي خلقت حالـة الوهم عند والدتي ٠٠
الشرطي : ووالدك ؟
ريكاردو : هو الاخر خائف ٠
الشرطي : كلام سخيف ٠ أنتم كما يبدو ، على اتصال به وبقية رجاله ٠ (صمت قصير) تكلم ٠ تكلم بهدوء ٠
ريكاردو : ببساطة ، والدتي خائفة ٠ أنت تعرف جيدا انه استشهد ٠ حرقتم حتى جثته ، وهدمتم المدرسة ٠ ودفنتم رفاقه ٠ بل أكثر من هذا حاصرتم جميع من التقوا به ٠ ماذا تقصد من قولك نحن على اتصال به ٠
الشرطي : (بذهول) والدتك تعرف الكثير اذن ٠ (صمت) ربما أنت أيضا ٠
ريكاردو : (بعصبية وغضب) هل تريد أن تلقي علينا تهمة مزيفة ؟
الشرطي : القرية كلها تعرف انه يزوركم ٠
ريكاردو : (بصراخ) لكنه استشهد ٠ انتهى ٠
الشرطي : أعذبك ٠
ريكاردو : لـماذا ؟
ريكاردو : لماذا لا تبقى في البيت ليل نهار وتنتظره ٠ (يطلب من ريكاردو أن يقف في زاوية الغرفة ٠ ينادي اخر ٠ يدخل فلاح شيخ يحمل على ظهره كيسا صغيرا) ٠

الشرطي : (بآلية) وأنت ، متى رأيته ، وكيف ؟
الفلاح : جئت لاراه ٠٠
الشرطي : تقصد لم تره ٠ (يضع الفلاح الكيس على الارض) ٠
الفـلاح : يقولون انه يجيء دون موعد ٠ ولهذا طلبت من بيترو أن يسمح لي بالمكوث هنا ريثما يأتي ٠ (صمت قصير) جلبت له قليلا من الخبز ٠
الشرطي : (يرفع رأسه ، ويتأمل الفلاح ـ بتعجب) من أنت ؟
الفلاح : أنا مدين له بالكثير ٠
الشرطي : كيـف ؟
الفـلاح : (يجلس القرفصاء) علمني ان حياتي ضاعت سدى ٠ اثنان مـن أبنائي رافقاه ٠٠ سعيد انهما رافقاه ٠
الشرطي : (دون أن يعرف من الذي يخاطبه) اذن أنت مع الحركة ؟

الفلاح : فاتني القطار .. أعطيت الحركة لاثنين من أبنائي .

الشرطي : قتلا معه .

الفلاح : ربما .. هذا غير مهم . (بفرح) تصور وفاءه ، اذ يعود لزيارتنا . (بتعجب) لست أدري لماذا اختار هذه البناية بالذات .. (بجرس حزين) . مباركة هذه البناية . (صمت) هل تنتظره أنت الاخر ؟

الشرطي : أنا ؟ طبعا .

الفلاح : (يقترب من الشرطي . يتعجب) . أخشى أن يغضب منك .

الشرطي : لماذا ؟

الفلاح : هل أنت من رجال الحكومة ؟

الشرطي : الا تراني ؟

الفلاح : بصري ضعيف . تشبه شرطيا . أنا لم أر رجال حكومة من قبل . بفضل تشي العزيز ، ملأوا القرية .

الشرطي : هل زارك أنت الاخر ؟

الفلاح : مرة واحدة ، سهر معي طوال الليل . ملأت له غليونه ثلاث مرات .

الشرطي : ماذا قال ؟

الفلاح : أوه .. لو سمعته . قال أشياء كثيرة .. ذاكرتي ضعيفة . في الليل نام متأخرا ، وشخر .

الشرطي : هل سمعت انه قتل ؟

الفلاح : سمعت .. لكنه يزورنا .

الشرطي : وهل زارك ؟

الفلاح : قلت مرة جاء شخصيا . أما الان ، فأراه في الحلم . الجميع يرونه في الحلم .

الشرطي : من هم الجميع ؟

الفلاح : القرية كلها ..

الشرطي : أتعرف انني عما قليل سأعتقلك ؟

الفلاح : لماذا ؟

الشرطي : لانك تعمل مع الحركة ؟

الفلاح : هل لانني أقدم له خبزا ؟

الشرطي : خبز . وأبناؤك . وحلمك . والغليون ... وو .

الفلاح : (دون أن يصدق نفسه) لكن لا يمكن أن يمنع عنه الخبز . انه جاء ليكثر منه ، فهل ثمة ضير لو آكل منه القليل . (ينهض الشرطي ، ويمسكه من كتفه ويدفعه الى زاوية الغرفة) .

الشرطي : (بغضب) قف هناك .

الفلاح : (باندهاش) ما هذا ! تمنعني من انتظاره ؟

الشرطي : انتظره في السجن . (ينادي بصوت عال اخر) . وأنت ؟ ما اسمك ؟

ماريا : ماريا ...

الشرطي : ماريا .. (يردد الاسم لنفسه مرات عديدة) . يبدو ألا عمل لكن

سوى خلق الاراجيف ، والشائعات في طول القرية وعرضها • أليس كذلك ؟

ماريا : أما ان تنهمكوا أنتم أكثر من أهالي القرية بمجرد هذيان والدتي ، وتقتحموا بيتنا البائس هذا ، وتستجوبوا كل واحد منا بهذه الطريقة ، فأكثر من عار •

الشرطي : (يحدق فيها بغضب) تكلمي بهدوء •

ماريا : (بانفعال) هدوء •• كيف يكون الهدوء بعد أن جمعتم علينا القرية كلها •

الشرطي : متى رأيته اخر مرة ؟

ماريا : (بحيرة) هل يعقل فعلا هذا الكلام ؟ وهل تخافون منه الى هذه الدرجة؟ الم تحرقوا حتى جثته ؟

الشرطي : وهل أنت متألمة لحرق جثته ؟

ماريا : متألمة لهذا الهوس الذي تفعلونه معنا • أخي ، ان والدتي متدينة جدا ، وأمس في عيد جميع القديسين حلمت طوال الليل وصلت أن ترى واحدا منهم في حلمها • ربما ، وهذه هي الحقيقة رأت أحدهم في حلمها فتصورته هو • ثم ألا يشبه هو القديسين في شكله ؟ ربما رأت القديس بولص ، أو القديس أوغسطين ، أو شاؤول ، وتصورت •• (بحيرة) مجرد حالة نفسية •

الشرطي : ووالدك ؟

ماريا : كلاهما خرف ••

الشرطي : (هازا رأسه) لا يمكن •• لا يمكن •

ماريا : (بغضب) حسنا ، طالما انك لا تقتنع ، ولا تريد أن تقتنع ، رأيناه ، وأجلسناه معنا ، وأطعمناه •• ماذا تريد ••

الشرطي : (بارتياح) تكلمي من الاول • أنا أحب الايجاز •

ماريا : (بغضب أكثر) ووعد أن يجز رأس أمثالك من الصعاليك والثرثارين ، والخدم •

الشرطي : (ينهض ويصفعها) اخرسي •

ماريا : (تضع باطن يدها على وجهها) جبان •• سافل • جبان جنرالك أيضا • حتى حكومتك جبانة تخاف شبح انسان ، بل اسم انسان •

الشرطي : اذن ، كلكم كنتم معه •

ماريا : فاتنا هذا الشرف ، لذا بقينا تحت رحمة هذا التحقيق القذر •

الشرطي : (ينهض ويدفعها بقوة الى حيث الفلاح) •

الفلاح : (كمن يفيق) ما الذي حدث ؟

ماريا : جبناء يخافون من شبح انسان ظهر في مخيلة عجوز مريضة •

الفلاح : (بذهول) ألم يأت هذا المساء ؟

ماريا : (بألم) ليت معجزة تحدث ويأتي حتى يبول هذا المأفون تحته •

الشرطي : (صارخا لماريا) اخرسي • (ينادي اخر • تدخل امرأة وهي في

حوالى الاربعين تحمل في كيس من ورق بضعة سراطين • تقف لصق الشرطي) • وأنت ؟

المـرأة : جلبت له سراطين طرية •

الشرطي : (بذهول) ماذا ؟

المـرأة : سراطين طرية • (تبحث في جيبها ، وتخرج صليبا معدنيا) • وهذا الصليـب •

الشرطي : من أنت ؟

المـرأة : مادلينا دي بارو •

الشرطي : وهل كان ذاك الملحد يؤمن بالصليب ؟

مادلينا : سيقبله مني •

الشرطي : حتى أنت خدعك ؟

مادلينا : متى يأتي ؟

الشرطي : أيتها الثرثارة المخدوعة ، هنا نحقق مع كل واحد كان له اتصال ، أو يفكر فيه ، أو حتى في اسمه • سأضعك في السجن وهناك ربما تستفيدين من سراطينك • (لنفسه بحيرة) من أين جاء هذا الرجل ليخلق لنا هذه الفوضى كلها ؟

مادلينا : أمضيت أكثر من ساعتين انبش في المستنقع وفي الطين البارد حتـى عثرت على هذه السراطين ، وأنت •

الشرطي : (مقاطعا) نعم أنا • (ينهض ويأخذ منها الكيس ويلقيه بعيدا ••) نعم أنا • اصمتي •

مادلينا : (بذهول) والله لو كان هنا لما استأسدت علي • (تلتفت الى ماريا ، والفلاح •) اشهدا عندما يأتي انه عاملني بهذه القسوة •

الفلاح : اوه •• اذ ذاك يقول وبلهجة خانعة ، عفوك ، أمرت ••

مادلينا : ما أكثر حججهم •

ماريا : لكن لن تنطلي علينا بعد الان •

الشرطي : انتظروا •• سأعرف كيف أعذبكم ••

الفلاح : ماذا تقصد بتعذيبنا ؟ ألا يكفي •••

الشرطي : (مقاطعا) بلا ثرثرة •

الفلاح : المهم ، أنا شاهد •

مادلينا : وأنا شاهدة •

الشرطي : وأنا المعذب • حسنا • (ينادي آخر • يدخل ألفونسو •) وأنت ؟

الفونسو : لا أعرف شيئا •

الشرطي : هل أنت من عائلة بيترو ؟

الفونسو : نعم • (يلتفت الشرطي الى مادلينا ، والفلاح •) أنت يا مادلينا من عائلة بيترو ؟

مادلينا : كلا • جئت مع الآلاف لاقدم هديتي له •

الشرطي : (الى الفلاح) وأنت ؟

الفلاح : أنا الآخر جئت مع الآلاف ٠
الشرطي : اذن جئتما لمشاهدته ٠ بل مثل الفراشة البائسة جئتما للنار ٠
الفلاح : أنا جئت من مسافة بعيدة ٠ (صمت قصير) لا تفسد عليَّ حلما طالما اشتقت له منذ ان رأيته آخر مرة ٠ (لنفسه بانتشاء) ليته يطلب الي أن أملأ غليونه مرة اخرى ٠

الشرطي : (بسخرية) ستحلم به في السجن كثيرا ٠
مادلينا : (بخوف) في السجن ؟ لماذا في السجن ؟ (صمت ٠) وهل تضعون جميع الناس في السجن ؟ وأين تضعون هداياهم ؟
الشرطي : (وهو يكتب) آه ، هذه العائلة ٠ (الى مادلينا) اسكتي ٠ سجننا يسع الجميع ٠
مادلينا : لكن الآلاف خارج الدار تنتظر ان تقدم الهدايا ٠
الشرطي : كل من يجلب هدية بحجة تقديمها له يوضع في السجن ٠
الفلاح : (مقاطعا ، وبسخرية) اذن لا بأس ٠ (ضاحكا) خلتني سأدخله وحدي٠
(ينهض الشرطي ، ويتقدم من الفلاح ، ويصرخ في وجهه)
الشرطي : ألا تعتقد انك تثرثر أكثر من اللازم ؟
الفلاح : لنحتكم الى هاتين السيدتين ٠٠ أينا أكثر ثرثرة ٠
الشرطي : (يغضب ، ويصفعه بقوة) مكانك ٠ مكانك ٠ اسكت ٠
الفلاح : (بتألم) ودم المسيح ما كنت تستطيع صفعي لو كان هنا ، او لو لم أكن في هذا العمر ٠
الشرطي : لو ماذا ؟ لو كان هنا ؟
الفلاح : لو لم أكن في هذا العمر ٠ كان يجب أن تخجل من لحيتي البيضاء ٠
الشرطي : كفى ٠ اخرس ٠
الفلاح : تحيا الدولارات ٠
الشرطي : ما شأني في الدولارات ؟
الفلاح : هي التي صفعتني ٠ (بغضب ٠) هي التي حولتك الى هذا الفم القذر ٠ أيها القذر ٠
الشرطي : (يتقدم منه) أنا قذر ؟
الفلاح : وجبان كذلك ٠
الشرطي : سيكون حسابك عسيرا أكثر من الجميع ٠ انتظر ٠
الفلاح : ماذا يفيد التعذيب مع جلد عذبته ودبغتـــه الشمس ، والارض ٠ ماذا يفيد التعذيب مع جلد أفسدته السراطين ٠ تعقل ايها الرجل ٠ مرة في كل ربع قرن يظهر قديس لا يريد ان يحشو رؤوسنا مثل قسس الكنيسة ، بل يعطف على جلودنا المدبوغة ، وأيدينا المشققة ، ويستشهد باختيار من أجل أن نأكل لقمة الخبـز بشرف ، فاذا بكم مثل الزنبـــور المضطرب تلسعون حتى الحجر ٠ أمس ، أقول أمس ، لانني أتذكر شبابي ، قتلتم زاباتا ٠ أمس ، قتلتم كاميليو ٠ تقتلونهم باسمنا ٠

الشرطي : قلت ٠ كفى ٠

الفلاح : أنت شاب صغير ٠ منذ حكم الاسبان ، حتى حكم اليانكي ونحن نتوارث البؤس كأننا ملعونون ٠ آه ، ماذا بوسع صغير مغشوش مثلك أن يفعل ؟

الشرطي : (ينادي آخر ٠ تدخل لينا باضطراب ٠) وأنت ؟

لينا : (بخوف) لماذا بقيت ابنتي هنا ؟ وريكاردو ؟

الشرطي : هل حققت معك ؟

لينا : أنا لينا ، زوجة بيترو ٠ ابنتي ، وابني لم يخرجا ٠

الشرطي : معتقلان ٠

لينا : لكنهما لم يرياه ٠ أنا التي رأته ٠

الشرطي : لو رأياه لكان الامر أهون ٠ انهما يعشقانه ٠ اخرجي ٠ اخرجي بسرعة ٠

لينا : أرجوك ٠ تأكد أنا وحدي رأيته مع زوجي ٠

الشرطي : قلت اخرجي ٠

ريكاردو : (الى والدته) ليطمئن والدي لبقراته ، وأرضه ٠٠٠ يا لرعبكما ٠ يا لعشقكما لتلك الارض ، والبقرات ٠

ماريا : اتركينا بسلام ٠ اخرجي ٠

الشرطي : هل سمعت يا سيدة لينا ٠ هل بعد هذا أتركهما بسلام ٠

ريكاردو : اذهبي ، ولا تستجدي هذا الانسان ٠ اتركينا ٠

لينا : (تبكي بحرقة) لكن أنا التي رأته ٠ أنا وحدي ٠ اسمع ، عندما هذيت وقلت هنا وهناك ان جيفارا جاء لزيارتنا ، أردت أن أخبر الحكومة حتى لا تعتقلنا ، أو تدمر بيتنا ، وتصادر أملاكنا ٠ لهذا السبب خفت ٠ أنت تعرف ما الذي حدث لاؤلئك الذين التقوا به ٠

ماريا : (بغضب ٠) ماما ٠٠ ماما ٠٠ لم هذا الاستجداء ؟ اذا كنا ندفع ثمن وهمك ، وحلمك ، فلندفعه بشرف على الاقل ٠ لنر ، يجب ألا ينسى هذا الشرطي مصيره ٠

الشرطي : (الى لينا) أعتقد أن كل شيء واضح الآن ٠ ها هي ابنتك ٠ تكلمت بمنتهى الوضوح ٠

الفلاح : (متدخلا) هل ننتظره حتى يجيء ؟

الشرطي : لا تتكلم ٠

الفلاح : أنا أكبر معمر في هذه القرية ٠ كنت أستشار في كل حادثة قتل ، أو سرقة ٠ أما اليوم فلا ٠

الشرطي : أما اليوم فلا ، لانك قلت الكثير ٠

الفلاح : لو تركتني أتكلم ٠ نحن رغم فقرنا كفلاحين نكرم الغريب ٠ ألم يقل القديس بولس — لا تنسوا ضيافة الغرباء ٠

الشرطي : (يفقد أعصابه) وهل أنا غريب ٠ أخي ٠ كفى ٠ اسكت ٠

الفلاح : حبذا لو كنت غريبا ، لدللناك ، وأكرمناك ٠ ألم تكن قرويا ذات مرة؟ ان هذه البدلة السوداء لا تغير ٠

الشرطي : (فاقدا أعصابه) أخي ، كفى ٠ أيها العم كفى ٠ ايها المحترم كفى ٠
الفلاح : محترم ٠ وهل يصفع المحترم ٠ نحن نكرم المحترم ونقدم له الخبز والسراطين ، لذا جئنا الى هنا ٠
مادلينا : وها نحن نعتقل لمجرد تقديم سراطين له ٠
الشرطي : أيها المسيح ، ان هؤلاء لا يعرفون الصمت ٠
الفلاح : وهل الصمت جزاء آخر ٠ أخي ، أنا لا يهمني أي شيء سوى أن أقدم له هذا الكيس المملوء بالخبز ٠
الشرطي : احتفظ بالخبز للسجن ٠ هناك ستحتاج اليه بالتأكيد ٠
الفلاح : ولكنني لن أترك هذا المكان حتى يجيء ٠
الشرطي : سآخذك ركلا ٠
الفلاح : لن تستطيع ٠
الشرطي : كيف لا أستطيع ؟
الفلاح : قلت لا تستطيع ٠ (يتقدم الشرطي منه ، ويهز الفلاح بقوة)
الشرطي : أظن أنني أستطيع ٠
الفلاح : (يبصق في وجه الشرطي) هل رأيت ثمن هزك اياي ؟
الشرطي : (يرفع يده ليصفع الفلاح ، يمسكه ريكاردو من رسغه) أبعد يدك ٠
ريكاردو : أما أن يصل الجبن الى هذه الدرجة فلا ٠
الشرطي : اذن معك تجدي الصفعة ٠
ريكاردو : لو صفعتني لاعدت لك الصفعة بأقوى منها ٠
الشرطي : (صارخا) عصابة حقيقية ٠ (ينادي الشرطي الثاني ٠ يدخل هذا بارتباك ٠ يلويان يد ريكاردو الى الخلف ٠)

الفلاح : يا لكما من مسعورين ٠ تقيدانه ٠ ألم يقل بولس ــ اذكروا الراسفين في الاغلال ٠
مادلينا : ماذا يفعلان به ؟
ريكاردو : قليلا من الحرمة للبيت ، ايها الكلبان ٠ جمعتما القرية علينا من أجل لا شيء ٠ (يحاول أن يتخلص منهما ٠ يضع الشرطي الثاني الطوق في يديه) لا تنسيا هذه الفوضى ٠
ماريا : وحوش ٠ كان يجب أن تحضرا أقفالا لكم الافواه ٠ (يخرج الشرطي الثاني ٠ ينادي الشرطي ٠ يدخل صبي في العاشرة)
الشرطي : اسمك ؟
الصبي : لا اسم لي ٠
الشرطي : لا اسم لك ؟
الصبي : نعم ٠
الشرطي : أين والدك ؟ والدتك ؟
الصبي : لاأعرف ٠ تربيت في القرية ٠
الفلاح : (متدخلا) اوه ، انه اوزفالدو اليتيم ٠ يا له من صبي عاقل ٠
الشرطي : متى رأيته ؟

الصبي : لم أره . جئت لاراه .
الشرطي : لماذا جئت لتراه ؟
الصبي : الجميع قالوا انه كان والدي .
الشرطي : والدك ؟ وهل ضحكوا حتى عليك . (لنفسه) حتى على الاولاد ؟
الصبي : عندما وصفته مديرة مدرستي ، كانت أوصافه بالضبط كما قال لي السيد دون كارلو .
الشرطي : من هو دون كارلو ؟
الصبي : رجل كريم رباني .
الشرطي : يجب أن تعقل .
الصبي : أنا عاقل ، والاول في صفي . (صمت قصير) وهل أنا مشاغب ؟
الشرطي : يعلمونك الشغب من الآن .
الصبي : ومجرد زيارته تشكل شغبا ؟
الشرطي : ماذا تريد منه ؟
الصبي : لا شيء . احبه ، لانه والدي .
الشرطي : ألا تعرف ، أو تسمع ماذا كان يعمل والدك ؟
الفلاح : (متدخلا) كان فلاحا شريفا يعمل عند السيد دون كارلو .
الشرطي : (دون أن يهتم للفلاح . الى الصبي) كان جيفارا طبيبا ، وجوالا . اسمع أيها الصبي ، لا تستمع الى هؤلاء . اذهب وتعقل .
الصبي : افضل أن أبقى مع هؤلاء لانتظاره . ثم انني جلبت له قليلا من السراطين . يقولون انه ورفاقه يحتاجون الى الاكل .
الشرطي : (بعد ان يتأمل الصبي بتعجب) حسنا . ضعها هناك . سأسلمها له بنفسي .
الصبي : لكنني اريد ان اكلمه بنفسي .
الشرطي : لكنه مات . حاول أن تفهم .
الصبي : للمرة الثانية يزور هذا البيت .
الشرطي : اخرج . عندما يأتي أناديك . (يخرج الصبي . تسمع أصوات مختلطة ، وصرخات . يدخل الشرطي الثاني .)
الشرطي الثاني : حضر جميع أهل القرية الى هنا .
الشرطي الاول : لماذا ؟
الشرطي الثاني : يريدون رؤيته .
الشرطي الاول : السيدة لينا ، والسيد بيترو خلقا لنا مشكلة . حاول ان تفرقهم .
الشرطي الثاني : مستحيل . ثم ان لدى الجميع هدايا .
الشرطي الاول : يجب ان نتصل بمدير الشرطة . (يشير الى زميله ان يخرج كلا من ريكاردو ، وماريا ، والفلاح الكهل . يخرجهم جميعا . بعد قليل يدخل . تستمر الاصوات ، والصرخات خارج الدار ـ نريد أن نرى القديس . اخرجا كي يدخل . لا تفسدا البيت . ليتني أراه . يا لشكله

الجميل · ترى كيف يظهر ومتى ؟)
الشرطي الثاني : أرى ان نترك المكان بسرعة ·
الشرطي الاول : وماذا نقول في تقريرنا ؟
الشرطي الثاني : ان الرجل مات · ما هذا الهراء الذي يفكر فيه المدير العام ؟ لنذهب · سمعت أهل القرية يتحدثون عن أشياء غريبة · انهم متحمسون· ومتهيجون · اذا لم نترك القرية حالا ذبحونا ·
الشرطي الاول : أما هذا المدير فمجنون · آه ، من هنا السيدة لينا ·
الشرطي الثاني : قالت انها من فرط خوفها هذت ، وكانت تنوي أن تخبر الحكومة · ثم انها اكدت لي انها رأته في الحلم ·
الشرطي الاول : حقا ، ان اجراءات الحكومة كانت وحشية بحق القرويين الذين تعاملوا مع جيفارا · اندريوس قتل تحت التعذيب ·
الشرطي الثاني : سمعت البعض يردد انه سيزور بيت بيترو كمن يحج ·
الشرطي الاول : عشقوه حتى العبادة ·
الشرطي الثاني : لنهرب ·
الشرطي الاول : لكنني اعتقلت ريكاردو ، وماريا ، ومادلينا ، وذاك الحرون الكهل ·
الشرطي الثاني : لننطلق قبل أن نمزق · ارفع تقريرا ، وقل ان كل شيء مجرد وهم ·
الشرطي الاول : الحقيقة هي ان امرأة رأته في عيد جميع القديسين وهذت في القرية · (صمت قصير) لكن تصور هذا العشق ·
الشرطي الثاني : وماذا رأيت بعد ؟ الآلاف في الخارج تنتظر زيارته ·

(أصوات عصبية في الخارج : هل انتهيتما · أطالا التحقيق · لن يأتي وأنتما هناك · اتركا هذا المكان · يخرج الشرطيان · تدخل الجماهير الى الغرفة · النساء والرجال ، والصغار يأخذون بالتحديق في كل زاوية من الغرفة · يخيم صمت على الغرفة · تدخل لينا شاقة طريقها بصعوبة · تتأمل أهل القرية بفرح · موسيقى خفيفة ·)

لينا : افسحوا الطريق ، رجاء ، تراجعوا الى الخلف · (تذهب قرب النافذة · تتكلم بلهجة هي مزيج من الخوف ، والاعجاب · تترصد عيون الناس · بعد لحظات تشعر بسعادة كبيرة) هنا وقف (تهز رأسها) أجل هنا · ثم اقترب وجلس على هذا الكرسي الذي كان الشرطي جالسا عليه ·
امرأة من بعيد : (بسخرية) دنس هذا المقعد الشريف · (تندفع وتمسح الكرسي) أجل دنسه · (ترفع الكرسي عاليا ·) أقسم ان رائحة عرق تشي ما زالت على الخشب ·
امرأة عجوز : (تقترب من السيدة لينا ·) استمري · ماذا قال لك ؟
لينا : (باعتزاز) مسد شعري ، وحياني · كان متعبا ، وسرواله مغسولا بالطين · ابتسم لي · جلس على الكرسي · (عندما ترى منتهى التأثر في عيون الجماهير ، تبدأ بالمبالغة) كان العرق يتصبب من جبينه ، ومن شعره

الطويل • ظل يبتسم لي • خلته للوهلة الاولى واحدا من القديسين • تعرفون كنا في عيد جميع القديسين • صليت كثيرا في الليل من أجل بقراتنا ، والاطفال ، والارض • لكنني عندما رأيت بندقيته ، ومسدسه ، خفت • وبرزت صوره التي على الجدران أمام عيني • هربت خارج الدار •

رجـــل : ماذا قال لك ؟

لينــا : أشياء لم أسمعها •

امرأة عجوز : يا للعار • وهل يخاف الانسان أمثاله • ليتني كنت مكانك •

(يدخل بيترو • ويذهب الى حيث زوجته)

لينــا : (بفرح) حتى العزيز بيترو رآه •

(يحس بيترو بجيشان شديد في عواطفه ، ولا يصدق نفسه وهو يرى هذا العدد الغفير من القرويين •)

بيترو : (وهو يحاول ان يسيطر على عواطفه) آه ، لو جاء هذه المرة • آه لو شرف بيتي مرة أخرى •سأعطيه بقراتي كلها • وهل غيره يستحق المساعدة •

رجل من بعيد : (بسخرية) وهل شعرت بالشهامة الآن ؟

بيترو : وكل دجاجاتي ، ونقودي •

رجل آخر : بدأ بيترو يستيقظ •

بيترو : شكرا لله لان الشرطيين تركانا بسلام •

صوت رجل : كان يجب أن نوسعهما ضربا •

صوت امرأة : هربا بجلدهما •

بيترو : أواه • هل سيأتي هذا الارجنتيني العزيز مرة اخرى ؟

أصوات : المهم نحن ننتظره هنا •

بيترو : (بانتشاء) سأعطيه كل شيء •

صوت امرأة : لكنك منعته من المجيء •

بيترو : (بانفعال) ارجوك • لم أمنعه • رفضت أن أبيعه أي شيء •

صوت رجل : عيب • بل عار •

بيترو : (بقلق) سأعتذر له • نعم سأعتذر • الآن اتركوا الغرفة ، ربما بمجرد عودة الهدوء يأتي •

صوت امرأة : ربما هذه المرة سيطل من أجلنا • (يخرج الجميع • يبقى الفلاح الكهل الذي دخل اثناء التحقيق)

الفــلاح : اذا جاءت الشرطة لا تخف • القرية كلها معك •

بيترو : (بخوف •) وهل تأتي الشرطة من جديد ؟

الفــلاح : ربما صادروا أرضك ، وبقراتك • لكن لا تخف •

بيترو : (بخوف شديد) لكنهم اقتنعوا بأنني لم أتعامل معه •

الفــلاح : ماذا ؟ هل غيرت رأيك ؟ أرضك تصادر ، ثم ماذا ؟

بيترو : أقصد انني لم اتعامل معه أبدا • (يدخل ريكاردو •)

الفـلاح : ماذا تعني انك لم تتعامل معه ·
ريكاردو : (غير مصدق نفسه) ماذا ؟ الحوار نفسه ·
الفـلاح : والدك ·
ريكاردو : ماذا به ·
الفـلاح : مثل الحرباء ·
ريكاردو : أعرفه · لو سمعك أهل القرية لانتهيت في لحظات ·
بيترو : لكن لماذا يصادرون أرضي وبقراتي ؟

(تدخل ماريا ،َوتزعق من الفرح ·)

ماريـا : ريكاردو ، اذهب وانظر · النساء يقبلن رأس ماما ، لان تشي مسـد شعرها ·
بيترو : (كمن يهذي) لكنهم سيصادرون أرضي ·
ماريـا : (بغضب) مرة أخرى أرضك · ألم تعد الجميع انك ستعمل المستحيل من أجله لو جاء ·
بيترو : لكن ···
ريكاردو : غيرت فكرك ·
بيترو : أرضي ، وبقراتي ، ومئات الدجاجات ·· هذه كلها تصادر ·
ريكاردو : (بتعجب) أي مصلحي متقلب هذا الرجل ؟

(تدخل لينا)

لينـــا : ستعود الشرطة يا بيترو بعد قليل ·
بيترو : كان يجب ان ننتظر ·
لينـــا : وأنا كان يجب أن أقطع لساني · سيقصون لي شعري الذي مسده ·
ماريـا : (تزعق) يا دجالة · يا كذابة ·

(يخرج الفلاح الكهل بغضب)

ريكاردو : يجب أن أترك هذا البيت العفن · لم يعد لي مكان بين أبوين حرباوين·
(بعد قليل يحدث هرج في خارج الغرفة · تدخل مادلينا)
مادلينا : هل بدأت تلعب على الحبلين ايها السيد بيترو ؟
بيترو : من أنت ؟
مادلينا : (بصراخ) وبخني الشرطي بما فيه الكفاية وألقى سراطيني التي تعبت في جمعها ساعات · وها أنت تبدأ باستجوابي · أعطني دجاجة لاقدمها له باسمي ·
بيترو : ماذا ؟ أعطيك دجاجة ؟
الفـلاح : (يدخل الفلاح الكهل ، ويصرخ بغضب) أيها الممثل بيترو · قطعة أرض حقيرة جعلتك تتأرجح مثل البهلوان على الحبل · أما تلك البقرات العجفاوات فقد سممت حتى حياتك ·
ريكاردو : (بحزن) انها الثلاثون قطعة من الفضة الحقيرة ·

الفلاح : (بغضب ، وبصوت عال) يا يهوذا الاسخريوطي ٠
لينا : (تصرخ) وهل زوجي يهوذا ؟ ماذا يريدون منه ؟
ريكاردو : زوجك يكذب على القرية ٠ يريدون ان يسهروا هنا حتى مجيئه ٠
بيترو : لكن الشرطة لا تحبذ هذا التجمهر ٠
ريكاردو : القرية كلها مسؤولة ٠
بيترو : وهل تريد ان أحول بيتي الى مسرح ؟
ريكاردو : وأي ضير في ذلك ما دامت هذه ارادة القرية ؟

(فجأة يقفز الفلاح ويمسك عنق بيترو ، ويحاول ، رغم عدم تمكنه ، أن يخنقه ٠)

الفلاح : أنا سلمته ولدي ٠ زرعهما في الادغال للطيور والحيـوانات ، وأنت تخاف على بقراتك الحقيرة وأرضك الميتة ٠ ايها الميت ٠٠ أيها المنبوذ ٠
بيترو : (مستنجدا) انقذني يا ريكاردو ٠ ماريا ٠ آه ٠٠ لينا ٠
لينا : (صارخة ومستنجدة بريكاردو) انقذه ٠ (يترك الفلاح عنق بيترو ٠)
بيترو : وهل بيتي محجة ؟
ماريا : أهل القرية يصرون أن يحولوا هذا المكان الى محجة ، أو متحف ، أو مسرح ٠ هل فهمت ؟
بيترو : (يتراجع ويستند الى الجدار ٠) لكن ٠
الفلاح : سأعلن اعتقالك وموتك الآن ٠
بيترو : وهل أنت دولة ؟ وهل القرية دولة ؟
الفلاح : اكثر من دولة ٠ (يبدأ عراك جديد بينهما)
ريكاردو : (يفصل بينهما) اترك هذا المتذبذب ٠

(أصوات من الخارج : يبدو انه ظهر ٠ ربما ٠٠٠ ربما ٠ لا مواعيد لديه ٠ يأتي مثل الهواء ٠ ترى هل يتكلم ، أم يكتفي بالتحديق فينا ٠ لا تتحلقوا حوله ٠ انه يعاني من الربو ٠ يدخل عدد من الرجال والنساء ، ويرسلون نظرات زائغة في أرجاء الغرفة ٠ هل ظهر ؟ هل ظهر ؟)

الفلاح : (يحاول ان يقنعهم) لم يظهر بعد ٠ اخرجوا ٠٠ ربما بدأ يظهر ٠ (يخرج الاشخاص الذين دخلوا) ما رأيك يا بيترو ٠ هل تريدني أن اسلمك لهم ؟ سيأكلون لحمك ٠
بيترو : (كمن يصاب بغيبوبة) لا أعرف ٠ آه ٠٠
الفلاح : أنت مثل بعض الفلاحين في الريف الروسي كلما طالبتهم حكومة الثورة بالانضمام الى كولخوز قتلوا بقراتهم ٠ أما هنا فسنقتلك قبل أن تقتل بقراتك ٠ (تدخل الجماهير وتهجم على بيترو ٠ ظلام ٠ موسيقى حزينة ٠ يظهر القس في ملابس القتال نفسها ٠)

القس : ربما تتفقون معي ان الوضع التراجيدي ينشأ عن موت الشيء الجميل ٠ كان ارنستو جيفارا جميلا على كل مستويات الجمال ٠ شكلا ، وروحا ، وفكرا ٠ لذا عندما مات ، صار تراجيدية العصر ٠

قال القديس اوغسطين : ان مجرد وجود الشجاعة دليل على وجود الشر ٠ لكن ليس بوسع كل انسان ان يعمل ويقول ان هذا شر ٠ ان تشخيص الشر والعمل للقضاء عليه يتطلبان أن يكون الانسان بطلا ٠ ولكي يكون الانسان بطلا يجب ان يدرك كماله البشري ٠ كثيرون جدا أولئك الذين لم يجدوا كمالهم البشري ، ربما عن جبن ، أو جهل ٠ لذا يقعون كتعويض في حب البطل التراجيدي ٠

عندما انتحر فرتر بطل رواية غوتيه ، انتحر معه عدد من الشبان ، وتخيله البعض حيا في مكان ما في ألمانيا ٠ أوليست الاساطير من صنع مخيلة ملايين البشر ؟

ترى أية قوة تستطيع منع شعوب امريكا اللاتينيـــة من نسج عشرات الاساطير حول هذا الانسان الاممي ٠ السنة المنصرمة ، وفي هذا العصر المهلوس اصيب الناس في مكان ما من هذا العالم بهذيان ظهور العذراء ٠ ترى كم من آلاف المرات الاخرى ، سيظهر جيفارا في أحلام المعذبين من الفلاحين ، والمقاتلين ، والعمال ٠ علينا مهمة واحدة ، وهي انتشالهـــم جميعا من فكرة انتظاره ، ودفعهم الى حيث استشهد هو ٠

(ظلام ٠ موسيقى حادة ٠ يظهر جيفارا داخل دائرة ضوء ٠ يبتسم ، وبعد أن يضع سيكارا في زاوية فمه ٠)

جيفارا : تعرفون جيدا انني لم أكن اكثر من جنـــدي مخلص أمين في جيش الاشتراكية ٠ اتهمت بالمغامرة لمجرد ان ثورتي في بوليفيا فشلت ٠ قبل أن أودعكم ، أقول للنصر آباء كثيـرون ، أما الهزيمة فطفل لقيط ٠ (يبتسم ٠) معذرة اذا طلبت أن ترددوا معي جملة ابولينير الرائعة ٠ هيا رددوا : لنفقد ، لكن لنفقد حقيقة ، لكي يتاح لنا ان نجد ٠ (ظلام ٠)

(ستار)

جليل القيسي
(كركوك ، العراق)

غادة السمان

الثورة الجنسية والثورة الشاملة

(أسئلة وأجوبة)

*** كيف تفهمين « ثورة جنسية » تحدث في المجتمع العربي ؟**

ــ لا أستطيع أن أفهم قيام « ثورة جنسية » بمعزل عن ثورة انسانية شاملة على كل صعيد : اقتصادية ، فكرية ، سياسية ، اجتماعية . « الثورة الجنسية » في نظري ، جزء من ثورة الفرد العربي على كل ما يستلب انسانيته من قوى ومؤسسات (اقتصادية ، سياسية ، أخلاقيات متوارثة ...)

الثورة الجنسية بالتالي هي جزء من ثورته لانتزاع حريته الانسانية ككل.

انني هنا أميز بين « ثورة جنسية » و « فورة اباحية » . أميز بين الثورة من أجل « أنسنة الجنس » والتحريض على تظاهرة « مواء شباطي » ، ترفع خلاله لافتات المطالبة بتعاطي التخدير الجسدي واستعمال الطرف الاخر كحقنة أفيون اضافية نتلهى بها عن الاستلاب القائم لانسانيتنا على الصعيد السياسي المحلي والخارجي ... اذن ، بالنسبة الي ، لا يمكن ان توجد « ثورة جنسية » في المطلق ، أو خارج اطار ثورة الانسان العربي ضد كل ما يتآمر على انسانية علاقته مع الرغيف والمكتبة والبندقية والسرير .

*** ماذا ترفضين من المفاهيم السائدة حول الجنس ؟**

ــ يوم قامت بالثورة في اكثر من قطر عربى فئة من الشبان (الثوريين) أذهلني مثلا ان يصدروا قانونا لتأميم الملكية دون أن تخطر لهم ضرورة اصدار قانون جديد للاحوال الشخصية (يؤممون) فيه الحرية للمواطنين بغض النظر عن تاء التأنيث في تذكرة هوية المواطنات كالغاء الاسباب المخففة فيما يدعونه بجرائم الشرف وغسل العار ، مثلا . لذا فأنا اعتقد ان الثورية العربية ما تزال عرجاء ، ما دامت تهادن كثيرا من القوى الرجعية والقيود المتوارثة التي نشأت

ضمن اطار اقتصادي لعصر معين ، وانقضى العصر ، وتبدل الوضع الاقتصادي ، وبقيت تلك العادات والاخلاقية المتوارثة تكبل جسد الثورة ككفن ـ قفص ! أبرز ما تتجلى فيه هذه المهادنـة تجاوز (الثورة) لاهمية تحرير المواطن من انثى وذكر واعتاقه ولو رسميا ـ كخطوة أولى ـ من تشريعات تثير التقزز ـ كأن تضطر امرأة مثقفة وتعيل نفسها (استاذة جامعة مثلا) الى احضار شقيقها ـ الذي قد يكون معتوها وأميا وهي التي تنفق عليه ـ الى دوائر الامـــن كي تمنحها السلطات المختصة اذنا بالسفر باعتباره وليا شرعيا عليها ! في ظروف رسمية واجتماعية وفكرية كهذه ، يستحيل نشوء علاقة انسانية وبناءة بين رجل وامرأة خارج السرير وداخله • تظل العلاقات أفيونية تجارية استغلالية تشيء كلا من الطرفين •

❋ اذن ماذا تقبلين من المفاهيم السائدة حول الجنس في مجتمعنا ؟

ـ طبعا لا شيء ما دامت نقطة الانطلاق خاطئة • ما دامت نظرة كل من الطرفين الى الآخر خاطئة ، وما دام المجتمع الرسمي وغير الرسمي يكرسان هذه النظرة الخاطئة • ومن الضروري أن ألفت النظر الى انني هنا لا أندب « حقوق المرأة » فتلك نظرة جزئية وسطحية وسنتيمنتالية و (مصروسينمائية) للقضية• فالثورة من أجل أنسنة الجنس ضرورية للرجل بقدر ما هي ضرورية للمرأة •• علاقتهما المزيفة غير الانسانية تهدر من الرجل بقدر ما تهدر من طاقات المرأة •• وتنحر ملكاته الابداعية بقدر ما تنحر ملكاتها • وحينما أطالب (بالمساواة) فانني أطالب ضمنا بحق الرجل والمرأة على السواء بعلاقات معافاة •

ولذا فالثورة الجنسية ضرورية من اجل المواطن ، ومن أجل ان تكـــون الثورة ثورة حقا • والمحرك لها ليس مرارة توعية انثوية فردية وانما غضبة يفترض أن تتفجر في أعماق أي ثوري حقيقي • انها ثورة للمطالبة بحقـــوق الرجل الثوري وليست ثورة للمطالبة بحرية الجارية في اختيار سيدها !

❋ ماذا تقترحين من مفاهيم وعلاقات جديدة ؟

ـ ان السماح في بريطانيا بزواج رجل مع آخر ـ رغم ما يثيره من هلع في أوساطنا ـ يعبر عن فكرة نسيناها تماما فيما نسينا خلال عصور « الانحطاط الجنسي » ••• وغير الجنسي • يذكرنا بأن شراكة الفراش بالمعنى الانساني هي أولا نتيجة للقاء انسانين على صعيد فكري وروحي قبل أن تكون الغاية من اللقاء مجرد تفقيس أطفال لحفظ البقاء ، الامر الذي يمكن ان يوفره في عصرنا التلقيح الاصطناعي وأنابيب الاختبار دون الحاجة الى استعباد أحد الطرفين لهذه الغاية ! أقترح :

١ ـ تذكير الانسان العربي بأنه مريض « بالزهري الفكري » فيما يتعلق بقضاياه الجنسية ، ما دام الشرط الاساسي (المشاركة) مفقودا في العلاقة ، والمشاركة تفترض المساواة • من مظاهر هذا (الزهري الفكري) هو استعمال

كل من الطرفين للآخر على انه سلعة استهلاكية كأية اسلعة اخرى ، ما دام مبدأ الاستعباد قائما ٠٠٠

٢ ــ الكف عن معالجة قضية « الثورة الجنسية » على صعيد الاثارة فذلك نوع آخر من الاتجار بالجنس ، وتحويله الى سلعة استهلاكية ٠

٣ ــ تحرير الفرد العربي من مفهومه الخاطىء حول تخلف المرأة **النوعي** ، ذلك المفهوم الذي ترسب في لاوعيه طيلة عصور ، والذي كرسته ــ يا للأسف ــ عصور وعصور ــ فالاديان والفلسفات القديمة والتشريعات البدائية قد كرست تبعية المرأة ٠ وحتى الفلسفة الاغريقية لم تخل من تلك الوصمة (فيثاغورس : يميز بين « مبدأ الخير الذي خلق النظام والنور والرجل ، ومبدأ الشر الذي خلق الفوضى والظلمات والمرأة » ٠ أبقراط : « المرأة هي في خدمة البطن » ٠ ارسطو : « الانثى انثى بسبب نقص معين لديها في الصفات ») ٠ في العصور الوسطى كانت المرأة ملكا للرجل وجزءا من الاقطاعية ، وكان من حق الفارس ضمانا لوفائها حبسها في « حزام العفة » اذا اضطر للسفر ٠

وفي مجتمعنا العربي المعاصر نجد « حزام العفة » مفروضا على المرأة ، بالضبط ، نجده مفروضا على (فكرها) اكثر مما هو مفروض على (جسدها)٠٠٠ المرأة التي تبيح لنفسها (حرية التفكير) تواجه قسوة (الرأي العام) أكثر من (المومس) ، أي التي تستنكف عن التفكير والمواجهة !

٤ ــ مساعدة الثوري العربي على تجاوز الهوة القائمة بين (افكاره التقدمية) و (سلوكه الرجعي) ، أي ثورة الثوري على (الازدواجية) في ذاته ، ومحاولة تحقيق التطابق بين أفكاره ومواقفه العملية ٠٠ ذلك وحده ينقذ « الثورة الجنسية » من أن تتحول الى « ثورة خطابية » حماسية ٠

وذلك كله لا يمكن ان يتحقق ضمن الشروط الاجتماعية القائمة حيث سيف التقاليد الموروثة والتخلف والجهل مسلط ، وانما يمكن تحقيقها فقط عبر « الفداء » ٠ وكما كان « الفدائي العسكري » هو الحل البديل لتخلف المؤسسات الرسمية عن مواجهة تحدي العصر في ساح الحرب ، وكما كان « الفدائي الفكري » في حقل الفكر الحل الاوحد لتخليصنا من مأساة فرن الزيات وابن أبي دؤاد التي ما تزال تتكرر حتى في ظل انظمتنا (**التقدمية جدا**) ، فان « الفدائي الجنسي » هو الحل ٠ وأعني « بالفدائي الجنسي » ذلك الثوري الذي لا يكتفي باعتناق قناعات وآراء تقدمية في هذا المجال ، وانما يعمل بها دونما خوف من مقصلة الجماهير غير المستعدة بعد لتقبل الافكار الثورية على أي صعيد ، وبصورة خاصة على صعيد ما يسمى (العرض) ، اذ انه حتى اليوم ما يزال يوسف وهبي هو فيلسوف العرب الاكبر على الصعيد الجنسي ملخصا فلسفته العظيمة في صيحته المشهورة : « شرف البنت زي عود الكبريت » ، وما يزال هذا الشعار العظيم يطغى على أية صيحة تذكر بشرف الارض ، وبكرامة الوطن ٠

*** كيف تنظرين الى الوفاء المتبادل بين زوجين ؟**

ـ كيف أتحدث عن (الوفاء الزوجي) والزواج في نظري بصورته القائمة مؤسسة فاسدة ؟ **كيف نطالب بالوفاء الزوجي حينما يكون ذلك الوفاء مناقضا لوفاء الانسان لانسانيته ولذاته ؟** الزواج في بلادي هو غالبا نوع من العهر الانساني المزود بشاهدين ووثيقة رسمية ، ويتمتع بحماية المؤسسات المتعفنة القائمة لانه بفساده وبتأطيره للانسان ، وبالتالي قتله البطيء لابداع الفرد وثوريته ، يضمن بقاء هذه المؤسسات واستمرار استنزافها للانسان .

اذن فعدم الوفاء الزوجي عندنا هو غالبا نتيجة لوفاء أحد الزوجين لحقيقته ! الخطأ ليس في أن أحدهما قد خان . الخطأ في ان المؤسسة بصورتها القائمة هي بحد ذاتها خيانة لاصالة النفس البشرية وحقيقة مشاعرها .

*** هل تؤيدين قيام علاقات جنسية كاملة قبل الزواج ؟**

ـ ماذا تعني بـ (كاملة) ؟ هل تعني بها التحام جسدين كما يحدث لذكور واناث الحيوانات جميعا ؟ هل تعني بـ (كاملة) عددا من السنتيمترات في جزء من جسد المرأة يتوغل فيه الرجل لدقائق ؟

بالنسبة الي ، العلاقة الجنسية الكاملة لا يمكن أن تكون (كاملة) الا اذا كانت علاقة التحام انساني كلي يبدأ من الرأس ، وغوص متبادل في الاعماق آخر وحدة قياسية له هو التقييم العشري (كما هي الحال في قياس المسافات المسطحة) .

وهكذا ، ففي حال نشوء علاقة جنسية (كاملة) بالمفهوم الذي ذكرت أنا ، فان تلك العلاقة لا يمكن ان تقوم قبل الزواج أو بعده .. انها بحد ذاتها زواج (مع الاعتذار من المأذون ودوائر الطابو والطوابع الاميرية) ...

*** الى أي حد تربطين مفاهيم الجنس بالمفاهيم الاخلاقية ؟**

ـ ذلك يتوقف على ما نعنيه (بالمفاهيم الاخلاقية) . هل نعني بها الاخلاقية التي فتحنا أعيننا ووجدناها (جاهزة) ، ورثناها من عصر آخر ، فضفاضة تعرقل حرية حركتنا وانطلاقنا ، أو ضيقة لا تستوعب خطانا ؟ ان (المفاهيم الاخلاقية) ـ في نظري ـ ترتبط بل تنتج ـ عن عصر معين له ظروفه الاقتصادية والتاريخية المعينة، ولذا فانه من الخطأ اعطاء (المفاهيم الاخلاقية) لمرحلة ما، صفة المطلق ! هذا أولا (مثال تقليدي ومعروف : أن يقدم زوج من الاسكيمو زوجته لتضاجع ضيفه هو أمر يتفق والمفاهيم الاخلاقية السائدة هناك . أن تتزوج فرعونية منشقيقها أمر بديهي ومستحب أخلاقيا ...) هذا يدلنا على نسبية المفاهيم الاخلاقية ، ولكن ذلك لا يقودنا بالضرورة الى نفي امكانية وجود حد أدنى من (الاخلاقية المطلقة) في بعض المبادىء (الاخلاقية) الانسانية الاساسية .. وهي في نظري تنتج غالبا عن البديهيات الانسانية القليلة جدا (بعبارة أخرى ، عن الحقائق

الانسانية الاكيدة والتي تحصى على الاصابع كالموت والولادة والشيخوخة والالم والجوع) ٠

وهناك شبه تعايش سلمي تفرضه أنانية الانسان وضعفه ومساواته أمام هذه القضايا ٠٠٠ (قتل أسد بطولة ، قتل حيوان من فصيلة الانسان جريمة لانه يشكل خرقا للتعايش السلمي المبني على تضامن الضعف البشري) ٠ ايمانا مني بما أسلفت ، وحتى أجد يقينا يكون سبيله الي ، القناعة العقلانية الحيادية (بقدر ما في طاقة الانسان من الحياد) لا القناعة المتوارثة أو العاطفية أو الناتجة عن ايثار السلامة ، أرى أن الربط بين مفاهيم الجنس والمفاهيم الاخلاقية بالمعنى التقليدي للاخلاق أمر خاطىء وموقف غير فعال في الحياة ، انه موقف (المفعول به) وليس (الفاعل) ٠٠٠ انه موقف مريح راحة كبش ينساق مع القطيع ٠٠٠ وهو بالتالي موقف غير ثوري وغير مبدع ، وصاحبه كائن داجن ، والمجتمعات الداجنة تنتهي في اصطبل احدى الامبراطوريات ، والاسم التاريخي لاصطبلات المجتمعات الداجنة هو مستعمرة (او غيرها من التسميات الحديثة مثل قاعدة حربية ٠٠٠) ٠٠

وهكذا ، بقدر ما تكون المفاهيم الاخلاقية لمجتمع ما قادرة على استيعاب حقيقة الانسان (مع ادنى حد ممكن من الزيف) تكون هذه المفاهيم الاخلاقية أقرب الى الكمال والمطلق ٠٠٠

ولكن ، ما هي « حقيقة الانسان ؟ تلك هي الحلقة المفرغة ٠ هل هو انسان الاديان ؟ انسان العالم القديم ؟ انسان ماركس ؟ انسان داروين ؟ انسان دوركهايم ؟ انسان بيكيت ويونيسكو ؟ أم أنه هؤلاء جميعا ؟ تراها حلقة مفرغة ، أم سلسلة لم تشهد الانسانية اكثرمن الفي حلقة من حلقاتها وهو عمر ضئيل ضئيل في أزلية الوجود ؟ لا أدري ٠ بالضبط لا يمكن لاحد أن يدري ٠ لو كان هنالك من يدري لما كان هنالك من يطرح مثل هذه الاسئلة ، لما كان هنالك من يحاول الاجابة ٠

*** الى أي حد يقاس مدى التقدم والتحرر في المجتمع بمدى التقدم في التحرر الجنسي ؟ ولماذا ؟**

ــ التقدم نحو ماذا ؟ التقدم ليس في مفهومي مرتبطا بالضرورة بالتقدم نحو القمر أو المريخ ! احيانا أشعر انه كان في حضارات العالم القديم وربما بعض الاقوام البدائية (رقي انساني) يعادل ــ ان لم أقل يفوق ــ ما نشهده في اكثر البلدان الصناعية و (الراقية) بمفاهيم عصرنا القائم (عصر الذرة ، وهيروشيما، وفييتنام) ٠٠٠ اذن يجب أن نتفاهم على مدلول الكلمات قبل أن نستعملها ٠

التقدم في نظري هو (التقدم نحو مزيد من اكتشاف الحقيقة الانسانية في الجنس البشري) ، والتحرر في نظري هو تحرر الافـــراد والجماعات من أي استلاب ضد انسانيتها ٠

اذن ، حينما نفهم من الجنس (ممارسة بهيمية شرطها الوحيد هو حرية لاواعية مراهقة) ، في مثل هذه الحالة يكون التحرر في ممارسة (جنس غير انساني) تخلفا وليس تقدما • المجتمعات (المتقدمة) في مفهومنا المعاصر أمر يثير حذري • بعبارة أخرى ، رغم أن منطق الدبابة ينتصر طبعا على منطق الجمل، فان ذلك في نظري لا يعني بالضرورة ان عصر الدبابة هو اكثر تقدما (على الصعيد الانساني) من عصر الجمل ، كما انه لا يعني العكس • باختصار ، أحب ان اذكر هنا ببديهية تكاد تصير شبه منسية في عصر التكنولوجية : بديهية اسمها الانسان • بديهية تقول ان **الامر الواقع** ليس بالضرورة **الحقيقة** • ولكن ما هي الحقيقة المطلقة ، وهل هي موجودة ؟ ما مدى قدرتنا على الاقتراب منها ؟ هذه كلها أسئلة ما تزال بلا أجوبة ، لكن افتقارنا الى جواب اكيد ونهائي وقاطع بشأنها لا يعني انتصار المنطق الآخر • وانما يعني ان معركة مرعبة كهذه : معركة اكتشاف الحقيقة (او اكتشاف عدم وجودها) ، أمر لا يمكن ان يتم في عدد محدود من الجولات على طول الفي سنة فقط من التاريخ •••

وهكذا ، وحتى اشعار آخر ، كل ما أملك أن أقوله في هذا المجال ان (تابو) الجنس لا يجوز أن يظل في ملكوته المقدس حيث الصمت يسكن الشفاه ، ولكن من الضروري تخليصنا ــ على الاقل ــ مما لحق به من أوهام ومفاهيم خاطئة طيلة عصور •

غادة السمان
(بيروت)

عبدالله زخيا

المرأة واليسار العربي

سأتناول في بحثي بشكل مقتضب نظرة مفكري اليسار الى قضية المرأة ثم القي نظرة على وضع المرأة العربية من الناحيـة التشريعية وموقف اليسار العربي السلبي من هذا الواقع وأخيرا سأحاول أن القي بعض الاضواء على أسباب موقف اليسار السلبي هذا ٠

ان اليسار العالمي الممثل بالمفكرين الثوريين وبالحركات الثورية المتعاقبة قد أراد من خلال دعوته الى تحقيق « الحرية والمساواة والاخوة » ، تحرير الانسان ذكرا كان أم أنثى ٠ لقد أعلنت وثيقة حقـوق الانسان الصادرة عن الثـورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ما يلي : « يولد الناس أحرارا ، متساوين في الحقـوق والواجبات » ٠ وعلى سبيل المثال لا الحصر ، سألم بآراء بعض هؤلاء المفكريـن الرائدين حول هذه القضية ٠

منذ تسعمائة سنة تقريبا ، بينما كانت أوربا تغط في ظلام دامس انبرى مفكر عربي وهو ابن رشد قاضي المسلمين يدافع عن حقوق المرأة ٠ لقد حلل وضع المرأة بقوله : « المرأة في الظاهر صالحة للحمل والحضانة فقط ، وما ذلك الا لان حالة العبودية التي انشأنا عليها نساءنا اتلفت مواهبها العظيمة وقضت على مواهبها العقلية ٠ فحياة المرأة تنقضي كما تنقضي حياة النبات ٠٠ وقد كان ذلك سببا في شقاء المدن وهلاكهـا » ٠ وفي خضم الثـورة الفرنسية أعلـن الفيلسوف كوندرسيه والثائرة أولنب دي كوج ولفيف الفلاسفة والمفكرين انه من أولى واجبات الثورة تحرير المرأة لان المرأة وهي نصف الامة لم تعط بعـد حظها من الحياة وهي مستعبدة بحكم القوة والجهل والشرائع والدين ، وطالبوا لها بالمساواة الكاملة في الحقوق باسم الحرية التي لا تقر التفرقة ٠ وخـلال القرن التاسع عشر دعا الاشتراكيون الاثيوبيون الى تحرير المرأة وقد لخص أفكارهم فورييه بقوله : « ان التقدم الاجتماعي رهن بتقدم المرأة والتقهقـر الاجتماعي مرتبط بتدهور أوضاعها » ٠ ثم ظهرت مع الجمهورية الفرنسية الثانية

حركة نسائية ثورية هدفها المساواة بين الطبقات ومن أهم رواد هذه الحركة **فلورا تريستان** التي استبقت **ماركس** باعلانها ارتباط تحرر المرأة بتحرر الطبقة العاملة ، وقد دعت العمال الى تحقيق المساواة بين الجنسين بقولها : « أيها العمال، اذ تناضلون من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية ، أثبتوا أنكم أنفسكم عادلون باقراركم مساواة المرأة لكم » • ومع بروز الاشتراكية العلمية أعلن **ماركس وانجلس** بأن لا تحرر للمرأة بدون الاشتراكية ولا اشتراكية بدون المرأة • ولم يشذ عن المفكرين الاشتراكيين سوى **برودون** الذي دعا لحصر المرأة في وظيفة التناسل وتأمين المتعة للرجل • أما في الولايات المتحدة فقد دعا الفيلسوف **ايمرسون** سنة ١٨٤٨ الى مساواة المرأة بالرجل • وفي بريطانيا دعا جون ستيوارت ميل سنة ١٨٦٧ مجلس العموم الى اعطاء المرأة حقوقها السياسية معلنا ان الرجل استعبد المرأة بقوته وان ما ينسب الى طبيعة المرأة هو مصطنع ، وان التقدم مرتبط بتحرر المرأة • وسنة ١٨٩١ دعت الاشتراكية العالمية في مؤتمرها المعقود في بروكسل جميع الاحزاب الاشتراكية الى اقرار مساواة المرأة والرجل في برامجها • ومع ثورة أكتوبر سنة ١٩١٨ انتقل هذا النضال الفكري من أجل تحرير المرأة وتأمين مساواتها للرجل الى حيز التنفيذ والتحقيق • لقد أعلن دستور الثورة المساواة الكاملة وعمدت فورا الحكومة الثورية الى اتخاذ جميع الاجراءات العملية لتنفيذ هذا الاعلان • وعلى سبيل المثال أذكر مادتين قانونيتين لهما دلالة كبرى على مدى مفهوم المساواة هذه وقد انفرد بهما القانون الجزائي الروسي عن جميع قوانين الدول الاخرى • لقد عاقب بالحبس كل من يحد من حرية المرأة بممارسة حقوقها وعاقب الداعرة وزبائنها عقابا مماثلا بينما جميع القوانين في العالم تعاقب المرأة دون الرجل •

ان النجاحات التي حققتها الثورة الروسية في ايصال المرأة بمدى أربعين سنة الى مستوى الرجل في أكثر الميادين دليل قاطع ضد المشككين بامكانات المرأة وبطبيعتها • وكان من أبرز نتائج هذه الثورة أن دفعت قضية تحرير المرأة واقرار المساواة بين الجنسين الى الامام بحيث أقرت حقوق المرأة تباعا في الكثير من الدول لا سيما الشيوعية والاشتراكية منها • ومن الجدير بالملاحظة أن موقف اليسار العالمي من قضية المرأة لا يعود الى أسباب تكتيكية أو استراتيجية بل ينبع من اقتناع عقائدي عقلاني وهو أن حقوق الانسان لا تنبع من سلطة تجود بها على الفرد وانما هي نابعة من صميم كيان الانسان نفسه وملازمة لهذه الصفة• وايمان اليسار بحقوق المرأة يعود أيضا الى أنه يعتبر ان تخلف المرأة ناتج عن استعبادها من قبل الرجل ، وأنه لن يتحرر المجتمع اذا لم تحرر المرأة والرجل معا • وتبدو لنا أهمية موقف اليسار هذا عندما نعلم أن المرأة لم تبادل اليسار دوما نفس التأييد والعطف الذي لاقته لديه بل هي ما زالت تعتبر قوة كبرى مساندة للقوى اليمينية أو المحافظة وهذا ما دعا **البابا بنوا الخامس عشر** الى مطالبة الكاثوليك في ايطاليا وفرنسا قبل الحرب العالمية الثانية باعطاء المرأة حقوقها السياسية • وبتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٤٨ توج حصاد المفكرين اليساريين وكفاح الثورات المتعاقبة باعلان وثيقة حقوق الانسان من قبل هيئة

الامم ، وقد ساوت المرأة والرجل في جميع الحقوق وفي جميع الميادين • ونظرا لما لتأمين مساواة المرأة والرجل من أهمية في مجـــال حقوق الانسان أصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة في ٧ــ١١ــ١٩٦٧ اعلانا خاصا في هذا الموضوع أعلنت فيه ما يلي :

«ان التمييز في الحقوق بين الرجل والمرأة هو جور وتعسف
« وخرق للكرامة الانسانية •
« ان النصوص والتدابير التي تؤمن المساواة الكاملة بـــين
« الجنسين يجب أن تعطى في كل دولة قوة دستورية •
« شددت الوثيقة على المساواة في الارث والاهلية والحقـــوق
« الزوجية أثناء قيام الزواج وعند انحلاله وطلبت الغاء كل
« نص في قانون العقوبات ينطوي على تمييز في المعاملة وفي
« الحقوق » •

وان لبنان والدول العربية التقدمية قد وقعت على هذين الاعلانين والتزمت بتطبيقهما وبالعمل على توفيق التشريع والعادات مع مبادئهما •

في أوضاع المرأة العربية التشريعية

والان لننظر معا في مقدار انطباق أنظمة الدول العربيـــة وقوانينها على مبادىء المساواة المعلنة في وثيقتي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ • ان المرأة العربية تتمتـــع بالحقوق السياسية وبالاهلية المدنية المالية ولكن هذه الحقوق معطلة عمليـــا بمفعول قوانين الاحوال الشخصية • ان التشريعات المتعلقة بالحقوق الشخصية في اطار الزواج والعائلة والارث والحياة الجنسية وان اختلفت وتفاوتت فـــي الانتقاص من حقوق المرأة وكرامتها وهي خاضعة لاحكام الاديان المختلفة ، مـــا تزال جميعها تعتبر « الرجل رأس المرأة » وان الرجال قوامون على النساءوالزوجة ملزمة بالخضوع لزوجها • لنلق نظرة على الاوضاع التشريعية العربية المتعلقـــة بالاحوال الشخصية •

١ ـ في مجال الزواج والعائلة والارث :

الزواج بمفهوم الشرع عقد يمتلك بموجبه الرجل حق التمتع بالمرأة جسديا قضاء لشهوته واكثارا لنسله ، لقاء دفعه مهر المثل واعالة زوجته • والمهر على ما ورد في كتاب الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية المعنون « أحكـــام الاحوال الشخصية » هو « شرعا ما أوجبه الشارع من المال بالزواج حقا للمرأة على الرجل مقابل منافع البضع » وهو الزامي في جميع الدول العربية • ان جميع التشريعات المتعلقة بالزواج والعائلة منبثقة من مفهوم الزواج هذا • أن تعدد

الزوجات مباح ما خلا في تونس ولدى الطوائف المسيحية والدروز ٠ وحق الرجل بالتطليق معترف به الا في تونس ولدى الطوائف المسيحية ٠ وزواج المسلمة من غير المسلم محرم ما خلا في تونس حيث لا ذكر في بطاقات الهوية للدين أو المذهب ، وحيث يتم الزواج أمام كاتبي عدل ٠ وللزوج الحق بمنع زوجته من السفر ومن العمل خارج البيت وهي خاضعة لدى الطوائف الاسلامية لاحكام بيت الطاعة ٠ « على الزوجة اطاعة زوجها وعليها أن تحفظ له ماله ونفسها من الحرام الذي يسقط شرفه ويدني مقامه » ٠ وللزوج الحق بتاديب زوجته بالوعظ فالهجر فالضرب غير المبرح ٠ وقد ورد كمثال على ذلك في كتاب « الاحكام الشرعية » للشيخ حسن خالد (مفتي الجمهورية اللبنانية) :

« للزوج حق تأديب زوجته ٠٠ اذا لم تلبه الى فراشه ان لم يكن لها مانع من حيض أو مرض » ٠

والولاية على العائلة في شتى مظاهرها وحالاتها تعود الى الزوج ٠ وحصة المرأة الارثية نصف حصة الرجل الا لدى الطوائف غير الاسلامية في لبنان ٠ فالمرأة العربية الصالحة بنظر الشرع هي التي صورها الرسول محمد بقوله : « خير النساء التي اذا نظرت اليها سرتك واذا أمرتها أطاعتك واذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها » ٠ ومن الجدير بالملاحظة أن أحكام القوانين الشخصية هذه تطبق بواسطة طبقة رجال الدين (ما عدا في تونس ومصر) وهذه الطبقة مغلقة الآفاق على عالم المرأة ٠

٢ ـ في القوانين الجزائية :

من ظلم هذه القوانين التي تكرس وحشية التقاليد أن يستفيد من العذر المحل من فاجأ زوجته أو أحد أصوله أو فروعه من النساء أو أخته في جرم الزنا المشهود أو في حالة الجماع خارج الزواج فأقدم على قتله ٠ يستفيد ايضا من العذر المخفف من قتل احدى هؤلاء وهي في حالة مريبة مع اخر ٠ ان هذه القوانين تعطي الرجل ويا للاسف حق الحياة والموت على المرأة في بلاد تتغنى باقرارها لشرعة حقوق الانسان ٠

وفي باب الزنى لا يعتبر الزوج زانيا الا اذا ارتكب الزنا في البيت الزوجي أو اتخذ له خليلة جهارا بينما تعتبر الزوجة زانية لمجرد اتصال جنسي ولو عابرا والعقوبة التي تلحق الزوجة هي ضعف العقوبة التي تلحق الزوج ٠ فالتشريعات العربية تكرس الازدواجية في القواعد الخلقية الجنسية معتبرة الحرية الجنسية عند الرجل من عناصر رجولته وهذه الحرية نفسها عند المرأة من عناصر اباحيتها ٠ وهكذا فان قوانين الزواج والعائلة والارث وبعض نصوص القوانين الجزائية تخالف بشكل سافر شرعة حقوق الانسان وتنتقص بشكل مخز من حقوق المرأة كانسان ٠ ومما يزيد في ظلم هذه القوانين انها مقصرة عن

مستوى المرأة العربية فكريا واجتماعيا بينما كان من المفروض فيها أن تستبق الواقع الاجتماعي والثقافي لتؤدي مهامها التطويرية • أليس من الغريب مثلا أن نرى في الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦١ نسبة النساء من الصيادلة بلغت ٩ ٪ ونسبة الطبيبات بلغت ٨ ٪ ونسبة المتخصصات في القانون بلغت ٣٠ ٪ وبلغت نسبة النساء في جهاز التعليم ٤٦ ٪ بينما النسبة في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٩ لا تزيد على ٣٪ في المحاماة و ٧٪ بين الاطباء ، ومع ذلك تطبق على المرأة المصرية القوانين المختلفة والجائرة التي أشرنا اليها ؟

موقف اليسار العربي من هذا الواقع

ما هو موقف اليسار العربي من هذا الواقع الاليم ، المخزي والمتعارض مع اعلان حقوق الانسان ؟

لم يضع على علمي أي من الاحزاب اليسارية العربية ولو دراسة علمية واحدة لبحث واقع التخلف والعبودية الذي ترزح تحته المرأة العربية وبيان طرق التغلب عليه رغم ان هذا الواقع يؤلف عائقا أساسيا في تطوير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتخلفة والتي تحد من قدرتنا على الانطلاق من واقع التخلف • كل ما هنالك بعض الاعلانات التي ما تزال حبرا على ورق وأهمها الاعلان الصادر عن حزب البعث في مؤتمره القومي السادس سنة ١٩٦٣ وقد جاء فيه : « ان تحرير المرأة يقع في رأس مهمات الثورة القومية الاشتراكية ، وان بناء مجتمع عصري ديمقراطي متحرر لا يمكن أن يكون تاما وسليما الا اذا واجه قضية تحرير المرأة مواجهة مبدئية شاملة جريئة » •

وهناك أيضا اعلان الثورة الجزائرية الصادر سنة ١٩٦٤ والذي يقر المساواة في القوانين وفي الواقع بين المرأة والرجل ويعلن بأن « تطور الرجل العربي مرتبط بتحرير المرأة » • سأكتفي بهذا القدر من الاعلانات وانتقل الى البحث عما حققته الثورات في كل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والجمهورية العراقية والجزائرية والسودانية والليبية وكلها تدعي الديمقراطية والاشتراكية في مجال تحرير المرأة • اذا استثنينا ما حققته هذه الثورات في مجال التعليم فبوسعنا أن نجيب بدون تردد تقريبا لا شيء في مجال قوانين الاحوال الشخصية والارث والقانون الجزائي • ان تقييد تعدد الزوجات بالقدرة على الانفاق كما في العراق ومصر وسوريا ، واخضاع حق الرجل بالتطليق لمجلس القاضي كما في مصر والعراق لا يتعدى المفهوم الاصلاحي الهزيل •

وحتى في بعض الظروف اتخذت أحزاب يسارية عند استلامها الحكم مواقف متخاذلة عن التي سبقتها في هذا المضمار • ومن أهم هذه المواقف موقف حزب البعث في العراق الذي وافق على الغاء قانون ١٩ كانون الثاني ١٩٥٩ الصادر

في عهد عبدالكريم قاسم والذي حقق المساواة في الارث بين المرأة والرجل. وكذلك فان الحزب المذكور قد أيد التدابير التي اتخذها عبد السلام عارف لمنع تنفيذ الاحكام التي كانت صدرت في عهد عبد الكريم قاسم والتي تعاقب الذين ارتكبوا ما يسمى في العالم العربي بجرائم الشرف . وفي الجزائر فصلت منذ سنة تقريبا الكاتبة والمناضلة فاضلة مرابط من جامعة الجزائر بسبب دفاعها المتواصل والعنيد عن حقوق المرأة الجزائرية المهضومة . وان وسائل الاعلام والتي هي بأيدي الاحزاب الحاكمة متخلفة كليا عن القيام بواجبها الاعلامي لا سيما من ناحية تحرير المرأة . وقد لفت نظري حديثا في العدد ٩٢٣ من مجلة « جيش الشعب » السورية المقال الوارد في باب المرأة وهو منقول عن مجلة الازياء الفرنسية ماري كلير وتلخص الافكار الواردة فيه بما يلي : على الزوجة أن تسهر وتعمل على أن تبقى عشيقة لزوجها حفاظا عليه . طبعا ليس بهذا النوع من الادب الذي يكرس عقلية المرأة كسلعة للرجل يكون العمل من أجل تحرير المـــرأة .

هذه هي مواقف الانظمة اليسارية .

ما هي مواقف الاحزاب اليسارية بما فيها الاحزاب الشيوعية ؟ لئن أكدت هذه الاحزاب نظريا ، مساواة المرأة بالرجل فانها عمليا قد تجاهلت كليا هذه القضية ، وحتى الاحزاب الشيوعية منها قد فرقت في تنظيماتها الداخلية بين خلايا الرجال وخلايا النساء . ان مطاليب هذه الاحزاب لم تتعد حتى اليوم النواحي المادية ومحاربة الاستعمار الى نواحي التخلف الداخلي لا سيما في مجالات حقوق المرأة وعلاقات الافراد والثقافة والعلمنة . فيبدو جليا ان اليسار العربي متخلف في هذه القضية ليس عن الدول الاشتراكية وحسب ، بل أيضا عن الدول الرأسمالية المتقدمة وحتى عن الدول الرأسمالية غير المتقدمة كتونس وتركيا وشاطىء العاج والكثير غيرها . ان الدول العربية التقدمية تخالف بشكل سافر جميع نصوص الوثيقة العالمية لحقوق الانسان التي تحرم كل تمييز بسبب الجنس ، وان الاحزاب اليسارية العربية تتجاهل هذه الحقوق المتعلقة بالمرأة . وان الوضع التشريعي للمرأة العربية هو من اسوأ الاوضاع في العالم وأكثرها تخلفا . شذت عن سلبية اليسار العربي تجاه المرأة ثورة واحدة وهي ما تزال شبه مجهولة عنيت ثورة ظفار في بقعة عربية يقطنها البدو والفلاحون تحدها اليمن الجنوبية وعمان . لقد وضعت هذه الثورة دراسة عن وضع المرأة وعملت على تحريرها فورا بأن قضت على الامية وأشركت المرأة في جميع المهام لا سيما العسكرية منها وعمدت الى زيادة عدد الاطارات السياسية النسوية والى تحقيق المساواة في المناطق المحررة . أملنا من الثورة الفلسطينية التي تدعو الى دولة علمانية ديمقراطية وتعمل لتحقيقها أن تثبت نضجها الثوري باعلانها المساواة الكاملة بين المرأة والرجل والعمل على تحقيق ذلك .

في اسباب موقف اليسار العربي

ما هي الاسباب الكامنة وراء موقف اليسار العربي السلبي من قضيـــة تحرير المرأة واقرار مساواتها مع الرجل ؟

هل ان تمسك الشعوب العربية بالدين وتحـــديد وضع المـــرأة في الكتب المنزلة هو المانع من تحقيق المساواة ؟ كلا ، ولي على ذلك حجتان :

الاولى ـ هي أن الامتيازات التي أعطاها الدين للرجل هي منحة وهبات ومن باب السماح وليست فريضة ، وبامكان الدولة ايقاف مفعولها بدون أن يكون في ذلك تدخل في أمور الدين • هذاما يفسر تعديـــل قانون الاحـــوال الشخصية في تونس باسم الدين ودون المساس به ، على شكل يحفظ حقوق المرأة أكثر مما تحفظها القوانين العربية الاخرى • وهذا أيضا مـــا جعل فقهاء الاستانة قبل سقوط الخلافة يفتون بأن منع المشترع لتعـــدد الزوجات لا يخالف الشرع •

الثانية ـ وهي بنظري الاهم هي ان مهام الثورات هي في تخطي جميع العقبات سيما الدينية منها لتحرير الانسان ذكرا كان أم أنثى وتحقيق المساواة بين جميع المواطنين وبالتالي فالتحجج بالدين عذر مردود أصلا • ان مهمة القانون في الدول الثورية هي استباق الواقع للتأثير على تطور المجتمع والاخلاق ودفعه بسرعة الى تقييم الحياة على أسس حضارية جديدة مبنية على المساواة والحرية والاخوة •

لقد علمنت الثورة الروسية الجمهوريات الاسلامية الروسية وحققت فيها مساواة المرأة والرجل الكاملة ، ولم تقوض هذه الشعوب الاسلامية نظامها بحجة انه مخالف للقرآن وهكذا حصل أيضا في يوغوسلافيا والبانيا •

أعلن أتاتورك في تركيا الاسلامية وحفيدة الخلافة علمنة الدولة ومساواة المرأة بالرجل ولم يقوض الشعب التركي المتعصب لاسلامه هذا النظام • ومنعت تونس تعدد الزوجات والتطليق واجازت الزواج المختلط والغت صيام رمضان لذوي العمل ولم ينقلب الوضع لهذه الاسباب على الرئيس بورقيبة • وأصدر عبد الكريم قاسم في العراق سنة ١٩٥٩ قانونا يساوي المرأة بالرجل في الارث ولم تحدث أية مقاومة • ومنعت حكومة شاطىء العاج المهر تحت طائلة الحبس ومنعت تعدد الزوجات والتطليق وأعلنت المساواة في الارث واجازت الـــزواج المختلط ولم يقم الشعب ويقعد • وحتى الدول العربية التقدمية نفسها أقرت سابقا حقوق المرأة السياسية ولم تأخذ بما ورد في القرآن والشرع لناحية قطع يد السارق ورجم الزانية ومنع استيفاء الفائدة وتحريم الخمر وهي تعلـــم في مدارسها بأن الارض (وان منبسطة في كتب الدين) فهي في الحقيقة مستديرة مخالفة هكذا التعاليم الدينية في ما هو الزامي وليس اختياريا كما في الاحوال الشخصية • ورغم كل ذلك فلم يبد الشعب أية مقاومة لهذه الامور • واكتفي

بهذا القدر لابن بأن التحجج بالدين هو عذر مردود ، أما السبب الحقيقي في تحجر الاوضاع التشريعية المتعلقة بحقوق المرأة فيعود الى أسباب أخرى • ان السبب الاول ولا أقول الاهم قد يكون ناتجا عن خصائص اليسار العربي وطريقة نشأته وتكوينه • ان اليسار العربي وقد نشأ كردة فعل ضد الاستعمار الخارجي بقي مطبوعا الى حد ما بانفعاليته التي أوقعته في المرض الطفولي لمعاداة الاستعمار • من خصائص هذا المرض انه يؤدي الى تصرفات مطبوعة بانفعالات وانعكاسات نفسية تجد في الرجوع ولو لا شعوريا الى التقاليد والمعتقدات القديمة حاجزا نفسيا لصد مخاطر الاستعمار الخارجي ومقاومته نفسانيا • ان هذه الردة هي أصلا ايجابية الا أنها تصبح مرضية عندما تفقدنا فداحة الهزيمة وقوة الانفعال حاسة النقد الذاتي الذي يمكننا وحده من تحليل واقعنا ماضيا وحاضرا على محك العلم والعقل بدلا من اللجوء الى رواسب الماضي وتقديسها في محاولة تخديرية ذاتية • ومن أبهى مظاهر هذا المرض هو الرجوع الى التراث الديني القديم واحياء حركات مخلصية Mouvements Messionistes .

ومن مظاهره بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ الدعاية التي نسجتها أبواق الاعلام المصرية حول ظهور العذراء في مصر محاولة اظهارها كتأييد سماوي لقضية العرب ، وكذلك الدعوة الى التدين وقد بيع في مصر بعد هزيمة حزيران مزيد من الكتب الدينية • ونظرا لما من علاقة بين الاحوال الشخصية والتعاليم الدينية فيكون مجال التشدد في هذا الباب سهلا وجذابا • يبدو كأن اليسار العربي قد تجاهل بأن الدعوة الى المساواة والعمل من أجلها كانت من مطالب الفئات المناوئة للاستعمار والمناهضة له ولم تكن يوما من الايام من مطالب الفئات الاستعمارية • وفي جميع الاحوال ان المدنية العصرية التي ترتكز على المبادىء والاسس الديمقراطية ليست شرقية ولا غربية وانما هي مدنية عالمية اسهمت حضارات الامم المتعددة لا سيما العربية منها في تكوينها • ان هذا الانفعال غير الواعي أدى الى الجمود والتقليد في مجال العادات والتقاليد والتشريع فأصاب المرأة في الصميم وأقعد المجتمع العربي عن التقدم والتجديد فأصبحنا نعيش حاضرنا بعقلية الماضي وبالتقييم البالي • وقد أدى هذا المرض التكويني باليسار العربي الى انحرافات خطيرة سنلم بالتي كان لها تأثير مباشر على موقفه من قضية المرأة •

من أخطر هذه الانحرافات تجزئة الثورة واعتناق نظرية المرحلية واستعمال شعار أولوية التحرر من الاستعمار لتأجيل الاصلاحات الجذرية التي لا تقوم بدونها الديمقراطية والاشتراكية في الدولة عنيت العلمنة ومساواة المرأة بالرجل • ان تجزئة الثورة هذه ناتجة عن عدم ايمان اليسار العربي بقدرة الجماهير الثورية على التغيير والابداع ، فالقائمون على اليسار العربي ما زالوا يلتقون مع اليمين في احتقار قدرات الشعب وطاقاته ، وخلافا لما يعتقد المرحليون ان الثورات التي غيرت وجه التاريخ لم تكن مرحلية بل راديكالية قضت على جميع أنواع الاستعمار والتخلف والاستغلال بآن واحد • ونحن ، في البلاد العربية ، أحوج ما نكون الى القفزات الثورية اذا كنا نبتغي الخروج من محور التخلف •

أما الانحراف الثاني فهو « الاقتصادية » • لقد حصرت هذه الحركات مطاليبها بالداخل باصلاح البنيان الاقتصادي والاجتماعي السفلي وتحقيق العدالة الاجتماعية • فحصرت نضالها الحزبي بقضايا الاجور والدواء والتطبيب وأسعار الكهرباء الخ ••• بينما لم تكترث لقضية علمنة الدولة وتحرير المرأة ، كأنهما من القضايا الترفيهية • لقد تناسى اليسار العربي ان الاشتراكية هي تغيير نوعي في علاقات الافراد وتكوين المجتمع ، بقدر ما هي ارتفاع كمي في مستوى الحياة المادية • ولن يخلق الانسان العربي الجديد الا بتغيير البنيان الثقافي الفوقي باخضاع تخلفنا الحضاري في مجالات الدين والحياة الجنسية والزواج والتربية للنقد العلمي بعيدا عن أجواء الخوف والقدسيات والمحرمات • ولئن كانت الاشتراكية الاقتصادية لازمة لتحرير المرأة بما تحقق لها من سبل العمل فانها لا تكفي • فالمرأة مستغلة في البلاد العربية على نطاق الجنس بقدر وربما أكثر مما هي مستغلة على مستوى العمل • والانحراف الثالث هو أن الانظمة التقدمية العربية يطغى عليها الطابع العسكري التقليدي ، ومن المعلوم والمعروف بأن الطبقات العسكرية كالدينية مغلقة على عالم المرأة وانها تقوم وتنمو على أسس من السلطة الفوقية والعلاقات الهرمية والقيم الابوية بينما المرأة لا تتحرر الا في أجواء الديمقراطية حيث تصبح العلاقات متساوية ومتوازية بين الافراد في ظل تقييم أخوي • هذه الانحرافات كلها عطلت زخم الثورة العربية الكامن في نصف الامة العربية وأقعدتها عن محاربة التخلف الثقافي والاجتماعي وأخرت مسيرتها نحو التحرر من الاستعمار والتخلف الاقتصادي • ان النساء المستعبدات يربين أشباحا من الرجال يقعدهم عن النضوج الادعاء وعدم المسؤولية ، والاثنان معا يشكلان دعائم مجتمع يزيد عددا ويضعف نوعا • ان قوة « المد البشري » و « المئة مليون عربي » لا يمكن أن تكمن في عصر التكنولوجيا في العدد وهزيمتنا المتواصلة في فلسطين أكبر دليل على ذلك • ان النوعية وحدها تقلب ميزان القوى كما أثبتت معجزة شعب الفيتنام في الصمود أمام أقوى وأضخم قوة مادية عرفها التاريخ • والنوعية لا تتم الا بثورة اجتماعية وثقافية ، وعلينا أن نعلم بأن استعباد أفراد الوطن الواحد بعضهم لبعض لهو أخطر وأدهى من الاستعمار الخارجي ، فكل من لا يعمل على نشر العلمنة والمساواة في الوطن العربي انما يعمل على ابقاء هذا الوطن متخلفا حضاريا وانسانيا وبالتالي ضعيفا وهزيلا أمام الخطر الخارجي •

أما السبب الثاني ، وقد يكون الاهم ، لموقف اليسار العربي المتخلف من قضية تحرير المرأة فيمكن في طبيعة العلاقات شبه الطبقية القائمة بين الرجال والنساء • مع الاسلام حازت المرأة العربية على أهليتها المدنية المالية بخلاف المرأة الغربية ، الا أن الاسلام وان طلب معاملة المرأة بالحسنى وهذب علاقة الرجل بها ، فقد وطد دينيا في الوقت نفسه ، تملك الرجل جسديا لها لا سيما وان الاسلام لا يصبغ اللذة الجنسية بالخطيئة كالمسيحية • وكون المرأة تشكل « وسيلة انتاج » في العائلة بيد الرجل وليس شريكة له يفسر لنا عدم الزامها بالانفاق على العائلة وحتى عدم الزامها بأوضاع أولادها والى ما هنالك من قواعد

شرعية تجد مبرراتها في التفريق بين التزام المرأة جسديا تجاه زوجها وعدم التزامها ماليا تجاه العائلة • ان منطق السلعة يطبق على المرأة ككل السلع الاخرى • فهكذا نرى مثلا ان مهر المرأة التي فقدت بكارتها أدنى من مهر الفتاة البكر وهكذا أيضا نرى التشريع للمسيحيين والمسلمين عندنا يعتبر انتفاء البكارة سببا لابطال الزواج بسبب العلة في المبيع كما لو كانت المرأة سيارة ينقص ثمنها مع الاستعمال • ان الرجل العربي نشأ في مجتمع حدد فيه وضع المرأة تحديدا طبقيا ضيقا بواسطة تنظيم اجتماعي واقتصادي وعائلي أبوي مغلق تدعمه ديانات أبوية هي انعكاسات سماوية لتفوق الرجل على المرأة ، وبواسطة عادات وتقاليد وأوهام تؤمن أولوية الرجل • والرجل العربي ، أكان يمينيا أم يساريا ، لا يريد اعادة النظر بهذا الوضع الذي يؤمن له امتيازات وضمانات تجاه ما امتلكت يداه من المرأة • وقد انعكس هذا التكوين الاجتماعي على عقلية الرجل فولد لديه عقدة هاجر وسارة التي كبلت نفسيته بازدواجية جنسية جعلته يعتبر كالمراهق أن الجنس والعاطفة متناقضان وأضحى متكالبا على الجنس علاقته بالام والاخت عاطفية وعلاقته بباقي النساء مرتدية طابع التعدي ، ومن ناحية ثانية فهذه الازدواجية لدى الرجل تجعل من الصعب على المرأة التكامل العاطفي والجنسي وعلى الاثنين معا الارتواء العميق للغريزة • لا شك أن التحرر في هذا المجال صعب وشاق لما يكتنف هذه الناحية من تصرفات الانسان من لاشعورية ودوافع غريزية وعاطفية عميقة الجذور • وان الرجل العربي الكثير الحساسية هو كالمراهق نفسه فيما يتعلق بما يسميه رجولته لعدم ثقته بنفسه ولخوفه اللاشعوري من المرأة هذا الكائن الذي صورته له الاديان كائنا نجسا وخطرا فأمعن في استعباده في محاولة للتغلب على خوفه هذا ، وتخديرا لنفسه وقد أصبح اليسار العربي نفسه ينظر الى موضوع المرأة « كتابو » ويتهرب من مواجهته على صعيد الفكر والتصرف اليومي •

ان اليسار العربي بدلا من أن يقف موقف الناقد من هذا التكوين الاجتماعي ولهذه العوامل النفسية الناتجة عنه فيثور عليها ويعمل على تغييرها جذريا ، عمد الى تجاهلها عندما لم يعمد الى تقييمها كعناصر حضارية ، والى تقديسها وحمايتها من كل نقد علمي • ان مقياس نضج اليسار العربي مرتبط بموقفه من الديمقراطية التي تفترض علمنة الدولة ومساواة المواطنين والمواطنات دون تفريق • ولن تكون حرية وديمقراطية واشتراكية كما يقول لينين بدون « اشتراك المرأة في جميع الميادين العامة وبدون تحريرها من أجواء المطبخ وأعمال البيت المظلمة وبدون مساواتها مع الرجل في اطار الاحوال الشخصية » • ولنستمع أخيرا الى قول الكاتب الروسي تشيكوف وهو يصف المجتمع الروسي قبل الثورة وكأنه يصف المجتمع العربي الحاضر : « اذا انكفأت النساء عن معاشرة الرجال أصابهن الذبول ، واذا امتنع الرجال عن مخالطة النساء أصيبوا بالخبل » •

عبدالله زخيا (بيروت)

خالدة سعيد

المرأة العربية : كائن بغيره لا بذاته ...

يمكن أن يصطدم البحث في وضع المرأة بعدة اعتراضات ، منها أن هذه القضية باتت قديمة ومضى زمانها • بحثها رواد عصر النهضة طويلا • على هذا يمكن الرد بأنه ما لم تتحقق للمرأة المساواة التامة على الصعيدين القانوني والواقعي ، وما لم يتحرر الناس (رجالا ونساء) من الافكار المسبقة عن المرأة — وهي أفكار تكونت على مر العصور ، من خرافات وتصورات غير علمية ، ومركبات نقص أو استعلاء ، وما لم تصبح البنى الاجتماعية مهيئة لانطلاق شخصية المرأة وتفتحها في مناخ من الحرية ومن احترام الشخص الانساني ، بعيدا عن كل تمييز واضطهاد بسبب الجنس أو العرق كما جاء في بيان حقوق الانسان ،— ما لم يتحقق هذا كله ، ستبقى هذه القضية مفتوحة •

أما التذرع بالظواهر لتحاشي بحث هذا الموضوع ، أو لتأجيله فأمر غير مستبعد • يمكن القول : يكفي المرأة أنها تخلصت من الحجاب ، ولم تعد تنزوي في البيت ، بل فتحت أمامها أبواب العلم والعمل والارتحال في طلب العلم ، ونالت الحق في الانتخاب • وكما قالت لي احدى الزميلات ، وهي مدرسة مجازة في الآداب : « كيف نبحث قضية تحرر المرأة ونساء بلادنا بالميني جوب ؟ » لكن ألا تقف الميني جوب في مستوى واحد مع الحجاب المعتم أو الملاءة باعتبار الحالين اقرارا بأن المرأة أولا واخرا جسد يمتلك ويصان ويخبأ أو يعرض ؟ ثم أين تخلصت المرأة العربية من الحجاب ؟ في بيروت والقاهرة ؟ ومن أي الحجب تخلصت ؟ من أي القيود ؟ وماذا بعد بيروت والقاهرة ؟ في دمشق ردة نحو الحجاب في بعض الاوساط •

وفي الجزائر ردة مذهلة تلغي ما اكتسبته المرأة زمن الثورة من حرية • والحجاب سيد في سائر الجزيرة العربية وغالب في العراق ومصر والمغرب وشائع في سورية •

وأين هي أبواب العلم المفتوحة في تلك البلدان ، والى أي مدى ؟ وعلى

افتراض انها فتحت، فما الذي يفتح أعين الاهل وعقولهم ؟ أما عن سائر الحقوق، ومنها الحق في الانتخاب ، أفلا يمكن أن نتساءل عن فاعلية هذه الحقوق ؟ أين هي المرأة التي تنتخب مرشحا غير الذي يريده أبوها أو زوجها ؟ واذا كانت « المفاتيح الانتخابية » في بلد ديمقراطي شكليا كبلدنا هي التي ترجح كفة هذا أو ذاك فما أظن أحدنا سمع بوجود مفتاح انتخابي مؤنث • أما الحق في الارث فله شأن اخر • كانت المرأة المسلمة تمتلك هذا الحق ، في حالته الراهنة ، منذ الف وأربعمئة سنة وفي جانبها تقف آية قرآنية تهدد من يحرمها بالنار الابدية ، وكان الاخوة أو الاب يحرمونها ، في الغالب ، الميراث مفضلين اصطلاء النار الابدية على التخلي عن الارض • وهم يحرمونها في ظل القوانين الجديدة ولا تعوزهم في ذلك الاساليب • وما تزال المرأة في الغالب تابعة مضطهدة وملكا خاصا ينتقل بنوع من المبادلة أو التنازل من حوزة الرجل ـ الاب الى حوزة الرجل ـ الزوج مع كل ما يكتنف هذا من تشيؤ واغتراب •

من الاعتراضات التي قد تثار ما يفيد أن الوقت ليس مناسبا لبحث هذه المشكلة « الجزئية » والشعوب العربية تواجه تحديات مصيرية • فالتحرر من الاستعمار الصهيوني والامبريالية ينبغي أن يجيء في المقام الاول من الاهتمامات، بكل ما يقتضيه من وعي جماهيري وتقدم تقني • والواقع ان هذا التحدي بالذات يجعل بحث وضع المرأة العربية ملحا وأساسيا • فنحن نتغنى باننا مئة مليون • وليس من الذكاء والتكتيك في شيء ترك خمسين مليونا جانبا • والتوعية الجماهيرية تفترض التوجه الى الملايين النسائية بدرجة مماثلة • ومما يذكر في هذا المجال أن بين أسباب النزوح الذي أعقب هزيمة حزيران ١٩٦٧ الخوف على أعراض النساء فهربت الاسر بهن بعد أن انتشرت شائعات تروي أن الاسرائيليين يعتدون على النساء • لقد تبين ذلك في الدراسة الاستقصائية التي أجراها كل من الدكتور حليم بركات والدكتور بيتر ضود في مخيمات النازحين من الضفة الغربية • « هربنا بعرضنا » كانوا يقولون • كانت المسؤولية تجاه الاسرة والعرض أو الولاء للاسرة والعرض أقوى من الولاء للوطن • والعرض في التحليل الاخير جسم المرأة ، بل أعضاؤها التناسلية • ولا ريب اننا في هذا الظرف التاريخي بالذات أحوج ما نكون الى احياء جميع الامكانات ورفعها الى مستوى يمكنها من الاسهام في النضال والانتاج ، لا سيما أن تقصيرنا التقني وتفوق القوى المعادية لا يترك لنا الخيار في الاعتماد على تفوقنا الديمغرافي •

الاعتراض الاخير ، وهو الاعتراض الذي يصمد ، ينطلق من واقع أن تحرر المرأة لا يمكن أن يتم بصورة منفصلة عن تحرر البروليتاريا • اذ لا وصول الى المساواة بين البشر في مجتمع منقسم الى مستغِلّين ومستغَلّين• وان هذه القضية ينبغي أن تبحث على صعيد تحرير الانسان من كل وضع غير انساني • صحيح أن قضية المرأة مرتبطة بالنظام الطبقي ، وان بلدا تتبع فيه العلاقات بين الناس خطا صاعدا هابطا أي بين سيد ومسود يصعب أن تجد فيه المرأة الحرية الحقيقية ، وان تستعيد فيه انسانيتها • لكن المرأة تعاني اغترابين : اغتراب

طبقي واغتراب على صعيد البنية التحتية في نطاق الاسرة ، فهي عبدة العبد ٠ حتى لقد رأى ماركس في علاقة الرجل بالمرأة خلاصة اضطهادات الانسان واغترباته ٠ وليس مؤكدا أن تتحرر بتحرر البروليتاريا ٠ فقد لا يرفعها هذا الا درجة واحدة في سلم العبودية ، اذ أن استغلال المرأة لا ينتفي بالضرورة بانتفاء الاستغلال الاقتصادي وان كانت الاسباب الاقتصادية في أصل استعباد الرجل للمرأة٠ فقد صاحب هذا السبب الاقتصادي ، على مر العصور ، مضاعفات ومركبات ليست المركبات الجنسية الوحيدة فيها ، ولعب الدين دورا مهما في تثبيت هذا الوضع وانزاله منزلة المسلمات والحكم الالهية ٠ لكن لا بد من القول ان اليسار ، والاشتراكية العلمية على وجه التحديد هي التي ينبغي أن تتولى طرح هذا الموضوع الملح دون أي تأجيل ، والا تتركه في يد الجمعيات النسائية والخيرية التي تغلب عليها الانتماءات البورجوازية ٠ فالتأجيل معناه التخلي التام عن أكثر من جيل من النساء، معناه ترك هذه الكائنات للتشوه النفسي والجسدي والفكري ٠ فقد أثبتت الدراسات الحديثة ان الظروف الاجتماعية والنفسية تؤثر تأثيرا ميتافيزيقيا في خلايا الدماغ ٠

لماذا ينبغي أن تتولى الاشتراكية العلمية طرح قضية المرأة ؟ لان القادة الفكريين للاشتراكية العلمية تخطوا كل المعتقدات الخرافية والنظرات غير العلمية ، وحتى المواقف الطوباوية والرومنطيقية أو التجزيئية للمرأة ، ورجعوا الى ما قبل الفوارق الطبقية والجنسية ، الى عهد الطبعية والبراءة البشرية أي عهد المساواة ٠ وفسروا الفوارق الحالية التي تبدو بين الرجل والمرأة تفسيرا لا يرجع الى تباين أصلي طبيعي ، بل الى أوضاع اقتصادية تاريخية ٠ والنتيجة المنطقية لهذه النظرة هي امكان زوال الفوارق بزوال الظروف ٠ يقول انجلز بهذا الصدد : « ان أول صراع طبقي ظهر في التاريخ جاء متوافقا مع تطور الصراع بين الرجل والمرأة ضمن نطاق مؤسسة الزواج ، كما أن الاضطهاد الطبقي الاول متواقت مع اضطهاد الجنس المؤنث على يد الجنس المذكر » ٠ ويربط انجلز ظهور الطبقات واضطهاد الرجل للمرأة بتطور الملكية الخاصة ٠ فالطبقة الحاكمة ، كما يوضح « بابي » ، « تستطيع اضطهاد الطبقات الكادحة لانها هي التي تملك وسائل الانتاج ، والرجل يستطيع اضطهاد المرأة ضمن نطاق الاسرة لانه هو القيم على أملاك الاسرة ٠ ومنذ استعباد المرأة أصبح تفوق الرجل في الاسرة ركيزة كل المجتمعات المنقسمة الى طبقات متصارعة » ٠

هذه الاشتراكية العلمية تدحض ، اذن ، كل ما اعتمدت عليه المزاعم القائلة بدونية المرأة وتفوق الرجل ، وتتوجه في أهدافها وبرامجها الى تحرير الانسان من الاستغلال والاغتراب ومن كل ما يهين انسانيته ٠ هذا على الصعيد النظري ٠ ومع أن المرأة في العالم الاشتراكي أفادت قانونيا من هذه النظرة فقد ظلت ، على مستوى الحياة الخاصة والبيتية ، تعاني من رواسب يحملها الرجل ٠ وهذا دليل على أن مسألة اضطهاد المرأة ليست من البساطة بحيث تزول بزوال

الاسباب الاقتصادية ، وللتحليل النفسي والظروف التاريخية كلمة مهمة في هذا المجال • على أية حال لم يقل ماركس مطلقا ما يفيد أن الغاء الملكية الخاصة سيؤدي ميكانيكيا الى تحرير علاقة الرجل بالمرأة من كل مظاهر الاغتراب •

مع ذلك تبقى فرص المرأة في العالم الاشتراكي (غير العربي طبعا) فرصا أكيدة • ذلك أن الاستقلال الاقتصادي والتقدم العلمي والضمانات القانونية تقف في جانبها وتهيء لهـا الفرص للتحرر ، علما بأن مشكلـــة الاختصاص بالاعمال المنزلية وسائر تبعات الزواج لم تحل بعد •

والان كيف تبدو الحال في عالمنا العربي وفيه عدد غير قليل من الـدول التي رفعت شعارات اشتراكية ؟

أولا ، ما هي المرأة في بلادنا ؟

لو سئلنا عن هوية امرأة ما ، لقلنا هذه زوجة فلان أو بنت فلان أو أم فلان أو اخته وأحيانا بنت عمه أو بنت أخيه ان كان معروفا • وما هي المرأة ؟ هي أنثى الرجل ، هي الام ، هي الزوجة • وهي باختصار تعرف بالنسبة الى الرجل ، اذ ليس لها وجود مستقل • انها الكائن بغيره لا بذاته • ولانها كائن بغيره فلا يمكنها ، في اطار الاوضاع التقليدية ، أن تعيش بذاتها • لا هي تشعر بالاكتمال بذاتها ، ولا المجتمع يقبلها ككائن بذاته • انها المثال النموذجي للاغتراب ذلك أن واحدا من أبعاد شخصيتها يطغى على سائر الابعاد ، أو على انسانيتهـا كلها • وما دامت كائنا موجودا بغيره ، فهي تسعى بكل الوسائل الى الدخول في آلة مهما صار اليه وضعها في هذه الآلة • والآلة التقليدية هي مؤسسة الزواج • في هذه المؤسسة تفقد المرأة ، ككل داخل في آلة ، شخصيتها وتعيش في حالة تتراوح بين الحالة النباتية والحيوانية بالنسبة الى ٩٩ ٪ من النساء العربيات • انها وارثة أنواع العبودية والاضطهاد في التاريخ • انها من عبيد المنزل والاقنان الذين لا تحررهم القوانين • هي في كثير من المدن حيوانات بيتية تحيا وتموت بعيدا عن الشمس • أما في الريف فتقوم بالاعمال الشاقة لكن الثانوية بالنسبة الى الانتاج ، كاستقاء الماء وجمع الحطب والاهتمام بالماشية وبالحصاد أحيانا ، ومعاملة المنتوجات بعد أن تصل الى البيت ، فضلا عن الحمل والولادة والطبـخ والاهتمام بالاولاد والاعمال المنزلية وسائر الواجبات الزوجية • وتبقى بعيدة عن العلاقة المباشرة بالارض • الزرع والغرس للرجل ، والحصاد وان شاركت فيه المرأة فهي مشاركة مأجور • انتاج ومصادره وأدواته بيد الرجل • واذا كانت المرأة بحاجة الى شيء فانه يجيئها منّة من ولي أمرها • ذلك ان أعمال المرأة في هذه المجتمعات تظل دون مقابل عيني ، ما دامت تعمل في نطاق الاسرة التي تبقى وحدة انتاج مغلقة • المرأة نفسها من ممتلكات هذه الاسرة • ولكـم سمعت أما تقول لابنها مثل هذا : « أعمالنا كثيرة وأنا تعبت سنبحث لك عـن عروس » •

أما في المدن فاذا عملت خارج الاسرة يبقى للزوج أو سيد البيت وحده

الحق في التصرف بدخلها باعتبار أنها ملكه الخاص ، وان لم تعمل يظل نشاطها محصورا في نطاق تلبية حاجات البطن · تمضي سنوات النشاط الجنسي اما حاملا واما مرضعا · ويتخلل ذلك كله الاعمال المنزلية البليدة المبلدة والإهانات الجسدية أو المعنوية ، العلنية أو المبطنة ، وهكذا فان اقصاءها عن الحياة السياسية والفكرية يتسبب في وأد مواهبها · والنتيجة ان شخصيتها التي تتحرك في المستوى البيولوجي المحض تتبع منحى انحطاطيا ، أو ما يسميه فرويد « صيرورة هابطة » · وقد عبر لينين عن هذه الوضعية بقوله : « ان المرأة تظل عبدة البيت تسحقها حقارة العمل المنزلي وتخنقها وتبلدها وتقيدها بالمطبخ وغرفة الاطفال وتبدد جهدها في عمل غير منتج الى درجة البربرية ، حقير مثير للاعصاب · ان التحرر الحقيقي للمرأة الشيوعية يبدأ فقط يوم يبدأ النضال الجماعي ضد حقارة العمل المنزلي وبعبارة أدق يوم يعاد تنظيم هذا العمل على أساس جماعي ، على أساس تنظيم اشتراكي » ·

خلال هذه الحياة المهينة يعتبر الوفاء والطاعة في رأس فضائل المرأة ، وللسيد ملء الحرية في التصرف بها ، أليست ملكه الخاص ؟ ألم يشترها الرجل بماله ؟ ألا يحق له أن يرغمها على كل شيء بحكم النصوص المقدسة ؟

ولا تسلم نساء النخبة المثقفة من هذا الوضع · بل ان هذه الفئة من النساء العربيات (وهي لا تشكل الا نسبة ضئيلة من الملايين البائسة) تعيش في صراع وتتمثل الوضع المأساوي لجنسها · تعيش في عالم يدينها مسبقا ولا يوفر لها الفرص المكافئة لفرص الرجل · هذا العالم الذي هو صنيعة الرجال لا يفهم المرأة الا تابعة فلا يعترف للمرأة العازبة بأية مكانة مما يدفعها الى دخول مؤسسة الزواج · وفي داخل هذه المؤسسة يبدأ الصراع الضمني ، لان صيغة هذه المؤسسة تخضع المرأة لتنازلات كثيرة وتجبرها على التلاؤم وتحملها الجانب العبثي من التبعات · هذا الوضع يحرمها مناخ الحرية والثقة فلا يبقى أمامها في معظم الحالات الا الاستسلام أو الانفصال ·

هنا يبرز سؤال : **لماذا لا تتمرد المرأة ؟** هذا التمرد يبقى بلا جدوى ما لم يكن جماعيا ، والدليل ان تعدد حوادث انتحار النساء في الجزائر احتجاجا على الاضطهاد لم يجد شيئا · والنساء لا يشكلن طبقة ، وهن لانتشارهن في سائر الطبقات ولاندماجهن العاطفي اندماجا تاما بالخلية التي تمارس اضطهادهن يصعب انتظار التضامن منهن · وبالتالي لا يمكن أن يمارسن ضغطا مباشرا أو يلجأن الى الاحتجاج العنيف · أما صيحات بعض المثقفات في الصحف أو المؤلفات فقد أدرجت في باب طريف يسمونه الادب النسائي · أما الجماهير النسائية التي عليها المعول فلا يمكن أن تتمرد ما لم تع ما في شرط حياتها من تناقض واغتراب ، ولكي تعي لا بد من أن تتخطى التقاليد والآراء الشائعة والافكار المسبقة ، لا بد من أن تثور على التربية العائلية والدينية التي تعدها لدور الامة المطيعة · كي تتمرد لا بد من أن تشفى من الرواسب السيكولوجية بل والعصابية التي تقرب احساسها بالانوثة من حالة المازوكية في مقابل

الرجولة المرضية المشوبة بالسادية ، باعتبار أن السادية هي موضعة « دافع الموت » وتحويله الى الخارج ، بينما المازوكية هي ترسب هذا « الدافع » في الذات وتحوله ضدها • وينبغي الاعتراف ان الكثير من النساء أصبحن ، بفعل التشوه الفكري ، قانعات بهذه الحال تركن للرجل المسؤوليات والاعباء والامجاد معا وتسلحن بسلطان الامر الواقع ومكانة « الضلع الآدمية » • تطربهن فكرة المرأة الزينة والترفيه ••

سأحاول أن أرسم الخط الذي تتبعه حياة امرأة ما :

تبدأ مشكلة البنت منذ ولادتها • وفي أرقى الاوساط العربية تنشأ مدركة أنها « زائدة » وغير مرغوب فيها رغبة الاهل بالصبي ، كما تعاني نوعا من التفرقة تقل حدته أو تزداد بنسبة نصيب الاسرة من التطور ، وفوق ذلك وصاية الاخوة الذكور عليها حتى لو كانوا أصغر منها • والخلاصة انها تنشأ في جو يربي عندها استهابة الصبيان والشعور بتفوقهم ونقصها • وأفضل طريقة للتخلص من البنت هي تزويجها في أبكر سن • تورد فاضلة مرابط في كتابها « المرأة الجزائرية » أمثلة عقدت فيها خطوبة البنات منذ الطفولة وأحيانا قبل الولادة : « ان جاءتك بنت احجزيها لي » • من طرق استغلال البنت أو معاقبتها لانها بنت تشغيلها خادمة أو « بيعها » بحسب التعبير المتداول ، حيث يؤجرها الاب ويقبض ايجارها مسبقا عن عدد من السنوات • ولا بد أن أحدكم التقى في شوارع بيروت أبا (من الريف السوري خاصة) يسير ووراءه بنت في السابعة أو العاشرة ، لا فرق ، جاء بها « ليؤجـرها » ، أوليست البنت ملكا خاصا للرجل الاب ، ويحق له بالتالي أن يستغلها كرأسمال ؟ وأجزم أن أحدكم لم ير أبا يجر وراءه غلاما ليؤجره • مع ذلك لا تثيرنا هذه المشاهد •

من أنواع البيع الزواج • المبادرة طبعا ليست بيدها بل ولا بيد أهلها • انها السلعة التي تنتظر مجيء الشاري • ولكي يراها الشاري أو وسطاؤه ، لكي تروج هناك علم قائم بذاته من الذل والكذب والوسائط ، وبما أن الشاري سيشتري جسدها (هي طبعا بلا روح عند أوساط من الناس ، أو لها روح شريرة أو سوداء كروح الزنوج (١) ، يبـدأ فن تحويلها الى دمية • يخبأ جسدها تشويقا أو يكشف اغراء لا يهم ، تعرض ثروتها في حلي على الرأس أو في اليدين لا فرق • ولم يزل تماما بعد نموذج الخاطبة الدمشقية التي تدق الباب وتسأل : « عندكم بنات للخطبة ؟ » • فاذا أدخلت لترى البنت احتالت حتى تفتح فمها وتشد شعرها الى اخر اختبار البضاعة •

في هذه المرحلة اذن يبدأ التشيؤ • فاذا نجحت وسائل التدليل وجاء الشاري تبدأ المساومة • هذه المساومة موجودة تحت أسماء وأشكال متعددة :

---

(١) لقد جادلت بنفسي عددا من النساء ، (لا الرجال !) في مناطق عربية متخلفة ، وكان بعضهن يحاول اقناعي بأن المرأة بلا روح او ان لها روحا من الدرجة الثانية •

هناك المهر الذي حددته النصوص الدينية بأنه ثمن للمرأة ، هناك عرض الثروة (عنده سيارة ، راتبه كذا ، حسابه في البنك كذا ، أو هو ابن فلان) ولا يخفى ما في هذا من اهانة للطرفين وتشييء كلي للمرأة ٠

فيما تستعد للخروج من بيت أبيها يجري تلافي مشكلات الارث ٠ قد تعطى المهر أو بعضه مقابل التنازل عن ارثها ٠ والنتيجة ان الاهل ولا سيما الاخوة يحاولون وينجحون غالبا في حرمانها من الارث لا سيما اذا كان أراضي زراعية ٠ اذ أن للارض الزراعية منزلة خاصة ٠ انها أرض الاجداد وتبقى في السلالة المذكرة ٠ وهذه من رواسب القبلية ٠

لدى دخول بيت الزوج تبدأ سلسلة جديدة من الامتهانات تختلف ألوانها بحسب تقاليد كل بلد ٠ في بعض المناطق تضرب العروس الخائفة في الليلة الاولى اما ارغاما واما فرضا لهيبة الزوج منذ البداية ٠ والنتيجة ان الزواج في معظم المناطق العربية يبدو نوعا من الاغتصاب الذي يحميه القانون والمجتمع ٠ وتتحدث فاضلة مرابط في كتابها الذي مر ذكره عن أخطار وآلام تتعرض لها المرأة في الجزائر والمغرب عامة بسبب جهل الرجل أو فظاعته ، مما يجعلها تستهلك وتستنفد في مدى بضع عشرة سنة ولا تعود صالحة للاستعمال ٠ ويكون الوقت قد حان ليبحث الرجل عن منابع الفتوة في جسد اخر ٠

ومن غريب التناقضات التي تكتنف كيان المرأة ، هذا الازدواج في جسمها : فهو نجس والعلاقات الجسدية لا سيما خارج مؤسسة الزواج خطيئة مميتة أو من الكبائر التي تستحق عليها الرجم ٠ وجسم المرأة بكل ما يطرأ عليه من عوارض يعد نجسا ٠ مع ذلك فان هذا الجسد نفسه يتمتع بأهمية لا مثيل لها ويحاط بهالات وطقوس ، والمساس به مساس بتابو الاسرة أو القبيلة ، وهو انتهاك عقوبته القتل غسلا للعار في حمى القوانين أو تساهلها حتى في البلدان العربية الاشتراكية ٠ ويمكننا أن نفتح صفحات الجرائم في الصحف اليومية لنرى مدى تكرر جرائم غسل العار حتى في هذه المنطقة المحسوبة على المدنية ٠ نجاسة المرأة هذه ودونيتها كرستهما الديانة اليهودية ودعمتها بالاساطير والشخصيات النسوية الملعونة حتى بدت مطية الشرور والطرف الضروري لكل خطيئة مميتة ، حتى بات الرجل اليهودي كما تذكر سيمون دي بوفوار في كتابها « الجنس الاخر » يقول في صلاته « أشكرك اللهم لانك لم تخلقني امرأة » بينما تقول المرأة اليهودية « أشكرك اللهم لانك خلقتني حسب مشيئتك » ٠ وقد ورثت اليهودية العالمين المسيحي والاسلامي الاسطورة التي تصنف المرأة في المرتبة الثانوية وتجعلها طريق الخطيئة والمسؤولة عن اللعنة والسقوط من الفردوس ، أعني أسطورة آدم وحواء ٠ هذه الاسطورة هي جوهر نموذج المرأة في تراثنا الشعبي والديني ، من امرأة العزيز الى البسوس الى ألف ليلة وليلة الى الخرافات والسير الشعبية ٠

جسم المرأة نجس ٠ وأذكر ذلك الشيخ الذي رفض أن يغسل يديه بصابون مستعمل خوف أن تكون امرأة ما لامسته مع ذلك كانت له أكثر من

زوجة • جسم المرأة نجس مع ذلك هو رأسمالها الوحيد للحصول على المال أو لتأمين الحماية والمستقبل المستقر وهو وضع تشترك فيه الزوجة والبغي • ومن هذا التناقض ينشأ موقف الجارية عند المرأة •

وتشجع الرأسمالية المرأة الجارية أو المرأة ــ السلعة أو المرأة ــ الآلة الجنسية وتستغل المركبات الجنسية (لا النوازع الجنسية) والاضطهاد الجنسي المقنع الى أبعد الحدود متسلحة مؤخرا بعلم الاجتماع وعلم النفس • وتسهل وسائل الاعلام الواسع هذا الاستغلال • وهكذا فان الاعلان عن المرطبات أو الملبوسات أو الدخان أو السفر أو أي شيء يعتمد على جسد المرأة • كما تتفتق عقول أصحاب المصانع المرتبطين بدور الازياء عن تقاليع لاحد لها تجعل من المرأة ، لا سيما المرأة العاملة ، فريسة سهلة • واذا كانت المرأة العاملة قد اكتسبت بعض الاستقلال الاقتصادي فان الرأسمالية تعرف كيف تستعيد منها المال الذي كسبته • ذلك أن النظام الرأسمالي يخلق الحاجات لخدمة اقتصاده• هكذا تصير المرأة مستهلكة بدرجة ممتازة • تعوزني الاحصاءات عن قضايا الاستهلاك ، لكن نظرة واحدة الى الاسواق عندنا (في بيروت مثلا) تبين غلبة المخازن التي تبيع الكماليات النسائية على المخازن التي تبيع الضروريات الغذائية والعلمية والفنية • بل ان مخازن المستحضرات الطبية أصبحت تعيش على مستحضرات التجميل •

هذا الاقتصاد يوقع المرأة فريسة لتناقض اخر : يجعلها السلعة المستهلكة والمستغلّة والمستهلِكة لمروجات استهلاكها • وما دامت هذه المروجات رائجة فعلا فلا بد من الاستنتاج ان المرأة ــ الشيء ، المرأة ــ الآلة الجنسية هي الانثى النموذجية •

ولدى دراسة المادة التي تقدمها الصحافة النسائية العربية وأجهزة الاعلام عامة من صحف واذاعات وتلفزيون الى القارئات أي الفئة القليلة المتعلمة العاملة نلاحظ أنها تتبع ــ عن قصد أو غير قصد ــ خطا معينا • هذا الخط يعمل على ابعاد المرأة المتعلمة عن نطاق الاهتمامات الفكرية والسياسية وعلى ابقائها في مجالها القديم • فكأننا هنا بازاء عملية غسل دماغ وخلق بدعة يسمونها « المرأة الشرقية » أي الانثى وارثة نساء ألف ليلة وليلة • وهي أسطورة يعارضون بها نموذج الانسان ــ المؤنث المتحرر الموجود بذاته • هكذا تقدم لها الصحف والاذاعات ثقافة الازياء وفنون التجميل وتعلمها « الاطباق التي يفضلها » • فضلا عن أبواب « كيف تجتذبين زوجك » و « كيف تداوين غيرة الزوج » و « ما الذي يلفت نظر الرجل » وباختصار كيف تبقين تابعة وحاضنة •

طبعا الجسد يقدر أن يكون رائعا متى بطل أن يكون سلعة أو آلة ، ونتائجه رائعة والامومة علو بالخلق وفرح من فصيلة فرح الابداع الفني والكشف العلمي وشق دروب الحرية ومناصرة الحق • لكن لماذا ينبغي أن تتنافى مع هذا كله وتبقى الافق الوحيد الذي تطل عليه المرأة ؟ الابوة فرح مماثل فلماذا لا تخصص صفحات للاباء ولا يحبس كيان الرجل في الفحولة والاخصاب ؟ ان سجن

كيان المرأة في حدود مستلزمات « الاحاسيس الكثيفة » غبن مزدوج ، فهو ، فضلا عن أنه يحد تفتح شخصيتها ، يقلص عمرها ويحدده بعمر نشاط جهازها التناسلي ويجعل شيخوختها حالة من الموت البشع •

لماذا لم تسيس أحزاب اليسار وتجمعاته قضية المرأة وهي المؤهلة لذلك ، كما أسلفت ، باعتبار طموحها الى تغيير البنية الفوقية والتحتية في المجتمع بما في ذلك تغيير العلاقات بين الناس ؟ ان أحزاب اليسار العربي تبدو كأنها قد نسيت أو تناست قضية المرأة • هل يعني ذلك أنها تستهين بها أو تعتبرها ملحقة بغيرها من القضايا أو تالية لها أو مندرجة فيها ؟ الواضح ان قضية المرأة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدين وبالتقاليد العائلية ذات الصبغة الدينية ولذلك تؤجل أو تهمل • فاليسار العربي لا يريد التورط في معركة مع الدين ، بل يبدو أن التركيب الديني للمجتمع العربي يستدرج هذا اليسار ويدخله في فلكه فلا يتحرك الا حيث يتسع الدين للحركة ، كتحركه على صعيد التحرر السياسي والاقتصادي مثلا • فالدين والمرأة تابو لا يجوز المساس بهما • ويختبىء اليساريون وراء حجة يكررونها لتبرير هذا التهرب قائلين ان تغيير البنية التحتية (الاقتصادية) سيؤدي حتما الى تغيير البنية الفوقية (الايديولوجية) أي الدين وما يدور في فلكه • لكن التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي خاصة أثبتت أن تغير البنية الفوقية ولا سيما تغير وضع المرأة وعلاقة الرجل بها ليست نتيجة حتمية لتغير البنية التحتية • اذ يبدو أن العصبية الجنسية أقوى وأعمق وأكثر تعقيدا من التضامن الطبقي • الرجل البورجوازي المثقف يمكن أن يتمرد على طبقته ويناضل في صفوف البروليتاريا ، لكن يصعب أن يتخلص ، على الصعيد الجنسي ، صعيد علاقة الرجل بالمرأة مما يحمل من رواسب وتشوهات نفسية ـ جنسية • لذلك كثيرا ما نرى يساريين مناضلين بصدق واندفاع يقفون من موضوع المرأة موقفا دينيا أو محافظا ، لا في الشؤون الشخصية وحدها بل حتى في الشؤون الحقوقية البسيطة •

وفي البلاد العربية العديد من الانظمة التي رفعت الشعارات الاشتراكية ، بل هناك أحزاب عقائدية يسارية تتولى الحكم في أكثر من بلد عربي • فما الخطوات الجذرية التي خطتها هذه الانظمة نحو تحرير المرأة ؟ هل هناك بلد اشتراكي واحد بدل قانون الاحوال الشخصية ؟ هل يمنع في الجزائر وسائر المغرب زواج ابن السبعين بابنة الثانية عشرة ؟ هل القتل « غسلا للعار » جريمة عادية في أي بلد عربي ؟ هل ترث المرأة نصيبا مماثلا لنصيب الرجل ؟ بل هل ترث ؟ هل الغي تعدد الزوجات ؟ هل سمح للمرأة بالزواج من رجل تختاره من غير دينها (أسوة بالرجل) ؟ هل أتيح للمرأة شرف الموت والقتال في سبيل الوطن ؟ هل هيئت للفتاة فرص متكافئة لتلقي العلم ؟ هل تجرأ أي بلد اشتراكي على الاعتراف بالابناء غير «الشرعيين» فلا تقع تبعة الجرم على المرأة وحدها وعلى الطفل بينما يظل الشريك الاخر حرا بعيدا محترما ؟ أما تزال الفتاة تسجن (دون الشريك) أو ترغم على البغاء القانوني (هذا اللون المرعب من الرق) اذا ضبطت في علاقة غير شرعية بينما لا ينال الرجل الشريك أي ضير ؟ الى اخر ما هنالك

من أسئلة مخزية ٠

والنتيجة أن أمام المرأة طريقا من النضال طويلة ، وهي حتما ستلتقي بطريق البروليتاريا في نضالها ٠ ويبدو لي هذا النضال نزوعا الى تخطي الوضعية الحاضرة ، نزوعا الى التحقق ككائن بكل أبعاده وامكاناته ، كائن يغتني بحمل مسؤوليات الوطن والانسان ، يعرف الكبر في الحب اذ يطل عليه من شرفة انسانية يلتقي بالرجل التقاء شوقين متقابلين متكافئين بلا مركبات ولا آفات نفسية ، بل تحركا نحو الاخر على مستوى انساني وكوني محض ٠

هذه الطريق طويلة ونساء العالم كله ما تزال في مراحلها الاولى ، غير ان النساء في العالم الاشتراكي خاصة يقفن الان على عتبة التحرر الجذري ٠ كي نبلغ نحن هذه العتبة أمامنا خطوات كلاسيكية لا بد لمن يطرح قضية المرأة من الالحاح عليها ، وان كانت اصلاحية محضة :

١ ــ تعميم التعليم المجاني والالزامي بالنسبة الى كل الفتيات ٠
٢ ــ التعليم المختلط ، بحيث تسقط الجدران بين الجنسين وتنقشع سحب الافكار المسبقة والارتياب أو الاحتقار بين الجنسين ٠
٣ ــ حملات لمحو الامية بين النساء والرجال على السواء ٠
٤ ــ ادخال مواد في التربية المدنية تسهم في تصحيح النظرة الى المرأة وتهيء لاعادة النظر في العلاقات بين الجنسين ٠
٥ ــ وضع قانون جديد غير ديني للاحوال الشخصية يضمن للمرأة المساواة التامة في الحقوق والفرص ويجعل لها وحدها السيادة على جسدها فلا تباع وتشترى ولا تحبس في بيوت البغاء ولا تضرب في المضاجع ، ويحدد السن الدنيا للزواج ، ويبيح الزواج بين أفراد من ديانات مختلفة ٠
٦ ــ فتح مجالات العمل كافة أمام المرأة بحيث يتهيأ لها الاستقلال الاقتصادي والنمو الفكري ٠
٧ ــ تنظيم حملات اعلامية واسعة للقضاء على الافكار المسبقة والخرافات التي تحيط بالمرأة ، مما يساعد على ردم الهوة القائمة بين الحقوق المدنية المكتوبة والحقوق الفعلية ٠ وبتعبير أدق اعادة تربية الجنسين ٠
٨ ــ انشاء رياض أطفال ودور حضانة تستقبل الاطفال في مواعيد العمل كي يتاح للمرأة بعض التحرر من أعبائها والاسهام في الانتاج ٠
٩ ــ الضمان الاجتماعي وضمان الشيخوخة خاصة فلا يبقى الزواج المؤسسة الوحيدة لضمان شيخوخة النساء ٠
١٠ ــ تسييس قضية المرأة والالحاح على توحيد النضال ضد الاضطهاد الجنسي بالنضال ضد الاستغلال الطبقي ورفع الحواجز بين الجنسين في مجالات النضال ٠

فالى متى يتناسى اليسار هذه القضية ؟ الى متى يسكت عن استمرار العبودية والتشوه ؟ يقول ماركس ما معناه أن موقف الرجل من المرأة يبين الى أي حد أصبح الانسان انسانا بالنسبة الى نفسه ٠

خالدة سعيد

كتب واتجاهات

عاطف فضول

قصص نجيب محفوظ الواقعية : تفسير اجتماعي

يعالج نجيب محفوظ في قصصه الواقعية (القاهـــرة الجديدة ، خان الخليلي ، زقاق المدق ، بداية ونهاية ، السراب ، الثلاثيـــة) المشكلات التـــي واجهت الطبقة الوسطى المصرية في الفترة الممتدة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى ونهاية الحرب العالميـــة الثانية مركزا على أواخر الثلاثينـــات وأوائل الاربعينات • وقد عاش محفوظ أحداث تلك الفترة السياسية وتفاعل معها كما عاش الأزمة الخانقة التي مرت بها الطبقة الوسطى المصرية في الثلاثينات بعد تحسن أوضاعها في أوائل العشرينات وتمكن من استيعاب المشكلات المختلفة التي واجهت تلك الطبقة التي ينتمي اليها • وجاءت قصصه الواقعية ثمرة ذلك التفاعل والاستيعاب وثمرة ثقافته الواسعة وتمرسه بكتابة القصة •

ويعطي محفوظ الادوار الرئيسية في تلك القصص لثلاث فئات تنتمي الى الطبقة الوسطى الصغيرة هي : التجار وصغار الموظفين والطلاب • كما ان غالبية شخصيات هذه القصص الثانوية هي من هذه الفئات • وتلعب الطبقـة الدنيا دورا شبه رئيسي في زقاق المدق فقط أما الطبقة العليا فأدوارها ثانوية •

وتركز هذه الدراسة على المشكلات الاجتماعية التي واجهت الطبقة الوسطى المصرية كما عالجها محفوظ في قصصه الواقعية •

قابلية التحرك الاجتماعي : العوائق والحلول

لعل أهم ما يميز الطبقة الوسطى عن غيرها من طبقات المجتمع هو عدم رضاها بمركزها الاجتماعي ، وسعيها الدائب من جهة للصعود الى طبقة أعلى ، وخوفها ، من جهة أخرى ، من السقوط الى طبقة أدنى ، وما ينطوي عليه ذلك كله من قلق وحساسية طبقية • فالطبقة العليا لا يقلقها الصعود لانها تقف في أعلى السلم الطبقي ، كما ان الطبقة السفلى تكون عادة راضية بقسمتها أو غير

واعية لوضعها الاجتماعي • وهكذا فاننا نرى باحثا هو هنري غريسون يعتبر أن الخاصية الاساسية التي تجعل انسانا ما عضوا في الطبقة الوسطى انما هي تصميم ذلك الانسان على التحرك الى وضع أفضل في السلم الاجتماعي وليس مرتبته الاجتماعية الفعلية (١) • كذلك يرى باحث آخر هو ألينور باربر وجود رابطة وثيقة بين طريقة حياة البرجوازية ككل والاختلافات والتغيرات داخلها ، وبين مواقف البرجوازية من قابلية التحرك الاجتماعي ، وأن جميع البرجوازيين تقريبا سعوا وراء رموز حياة النبلاء ، ونحو ترك طريقة حياتهم البرجوازية وطرح السمة البرجوازية جانبا (٢) •

وقضية التحرك الاجتماعي هي المشكلة الاساسية التي تواجه أبطال قصص محفوظ • وهي تتخذ أشكالا مختلفة عندهم ، كما أنهم يواجهون آثارها بطرق متعددة • ويشير الكاتب الى أهم العوائق التي كانت تحول بين أبناء الطبقة الوسطى وبين تحسين أحوالهم والارتقاء اجتماعيا في ذلك الدور الذي تتحدث عنه هذه القصص •

وأول هذه العوائق الفقر الذي حال دون اتمام كل من أحمد عاكف في «خان الخليلي» وحسين كامل في «بداية ونهاية» لدراستهما• وثانيها الوساطات واستئثار طبقة واحدة بكل مناصب الحكومة • يقول محجوب عبد الدائم في « القاهرة الجديدة » • « ••• والحكومة أسرة واحدة • الوزراء يعينون الوكلاء من الاقارب • الوكلاء يختارون المديرين من الاقارب : والمديرون ينتخبون الرؤساء من الاقارب • الرؤساء يختارون الموظفين من الاقارب • حتى الخدم يختارون من خدم البيوت الكبيرة • فالحكومة أسرة واحدة أو طبقة واحدة متعددة الاسر ••• (٣) »

ونسمع فؤاد الحمزاوي الذي أتاح له تعليمه أن يصبح مساعد نيابة يشكو مع ذلك من الوساطات « ••• في الاسبوع الماضي عين مستشارا رجل لم يبلغ الاربعين من عمره ، وقد أخدم القضاء عمري مجتهدا ناصبا دون أن أظفر بهذا المركز السامي » (٤) • كما نسمع حسين كامل في « بداية ونهاية » يشكو من الفوارق الطاغية بين الموظفين (٥) • ويبدو أن هذه العوائق كانت تقف بشكل جدي ومؤثر في وجه أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة • لذلك فان تجاوزهم لها لم يتأت الا عن طرق ملتوية كالانحراف السياسي والخلقي (سالم الاخشيدي) والشذوذ الجنسي (رضوان ياسين) • أما الحلول التي لجأوا اليها لمواجهة هذه العوائق فيمكن تصنيفها الى نوعين أساسيين : حلول فردية ، وحلول اجتماعية •

١ ـ الحلول الفردية :

وهي حلول تلجأ اليها شخصيات محفوظ الرئيسية • وتشمل اللجوء الى الوساطات ومحاولة الزواج من الطبقة العليا ، والتقرب الى تلك الطبقة ،

والمعاناة النفسية من المشكلة دون القيام بعمل ايجابي في سبيل ايجاد حل جذري للمشكلة الطبقية من الاساس · وقد يكون من المفيد في توضيح طبيعة هذه الحلول أن نتناول كل شخصية رئيسية من قصص محفوظ على حدة ، ونبين الطريقة التي اتبعتها في مواجهة معوقات التحرك الاجتماعي ومظاهر الظلم الاجتماعي التي عانت منها ·

أ ــ محجوب عبد الدائم[٦] **بطل « القاهرة الجديدة »** : طالب فقير يدرس في القاهرة بعيدا عن أسرته التي كانت تقيم في القناطر · كان لفقره « يرمق ملاذ القاهرة من بعيد ، ويسترق السمع الى أخبارها بنهم وألم »[٧] · وتفاقمت مشكلة الفقر عندما مرض والده وأحيل على المعاش · ولكن محجوب الذي استطاع أن يتجاوز هذه المشكلة بقبوله العيش بجنيه واحد في الشهر حتى نيله الليسانس ، كان يشكو من داء التطلع الطبقي الشديد · فقد جعلته مشاهدته للقصور على جانبي شارع رشاد باشا يقول لنفسه : « انه لو كان وريث أحد تلك القصور وأشفى أبوه ــ الباشا ــ على الموت لانتظر موته بفارغ الصبر »[٨] ·· كذلك فانه يتمرد على الاقدار التي جعلته من هو · تساءل وهو ينتف حاجبه الايسر لماذا قدر له أن يولد في ذلك البيت ؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان والفقر والدمامة ؟ أليس من الظلم أن يرسف في هذه الاغلال قبل أن يرى النور ؟[٩] وكون محجوب لنفسه فلسفة جمعها من حثالة الفلسفات الالحادية السائدة في الجامعة تقوم على طرح جميع القيم من دينية وأخلاقية واجتماعية جانبا ، وركز اهتمامه على « نفسه التي يحبها أكثر من الدنيا جميعا ، أو التي يحبها وحدها دون الدنيا جميعا » وجعل أسوته الحسنة ابليس الرمز الكامل للكمال المطلق والتمرد الحق والكبرياء الحق والطموح الحق والثورة على جميع المبادىء[١٠] · وكانت الطريقة التي أتبعها لتجاوز مشكلتي الفقر والاعتبار الاجتماعي بعد نيله الليسانس هي اللجوء الى الوساطات والاقتداء بسالم الاخشيدي ابن بلده ــ القناطر الذي « ظفر بوظيفته لانه خائن ، ورقي لانه قواد »[١١] فاتخذه مثلا أعلى وراح يتبع تعليماته · وعندما حضر حفلة خيرية أرستقراطية بناء على توجيهاته وشاهد الاخشيدي وعظمته « تنهد محجوب ولو أمكنه ــ في تلك اللحظة ــ أن يصير عظيما ولو بجريمة ترمي به الى حبال المشنقة لما تردد ! »[١٢] وهكذا استحوذ التطلع الطبقي على مشاعره فقبل عرض الاخشيدي الزواج من عشيقة الوزير مقابل تعيينه سكرتيرا له · وكان قبوله بداية النهاية المأساوية ·

ب ــ أحمد عاكف بطل خان الخليلي : موظف صغير بوزارة الاشغال اضطرته ظروف عائلته لان ينقطع عن متابعة دراسته بعد نيله البكالوريا ، وأن يتوقف بالتالي عند حد منخفض نسبيا في السلم الاجتماعي · فأصيبت آماله بطعنة قتالة دامية ترنح من هولها « واجتاحته ثورة عنيفة جنونية حطمت كيانه ، فامتلأت نفسه مرارة وكمدا · ووقر في أعماقه أنه شهيد مضطهد ، وعبقرية مقبورة ، وضحية مظلومة للحظ العاثر ·· وتلوثت عواطفه بتمرد ثائر وسخط خبيث وكبرياء حنق ، واعتداد كاذب بمواهبه ، مما جعل حياته عذابا متصلا

وشقاء مقيما » ١٣ . وهكذا فهو « لا يحب ذكر وظيفته ارضاء لكبريائه ، فكانت لحظات التعارف لحظات تعذيب »١٤ بالنسبة اليه .

ولجأ أحمد الى طرق ملتوية لتحقيق ذاته وتعدي مرتبته الاجتماعية . جرب العلم والاختراع والادب والسحر دون أن يفلح في أي من هذه الحقول « وسقط تحت أنقاض المحاولات الفاشلة والامال الخائبة والاوهام الضائعة ! واطرد مجرى الايام وتقدم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ ، بل جعل يجد لألمه لذة غامضة » ١٥ . وعاش حياة — مأساة بعد أن عجز أيضا عن النجاح في الحب ، ورفضت فتاة أحلامه انتظاره عشرة أعوام . فكفر بالحب وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميعا١٦ . ونراه عندما وقع في الحب مرة ثانية يستسلم لاحلام شيطانية مرعبة : « ... تمنى في صمته غارة جنونية تقذف القاهرة بالحمم فتدك مبانيها وتهلك بنيها فلا يبقى منها الا خرائب واثار ، وشخصان حيان لا غير ، هو وهي ! »١٧ لان هذه الاحلام ربما كانت أمله الوحيد في تحقيق شيء من ذاته اذا اكتشف أهل الفتاة أنه — كما يقول هو لنفسه — « (في الاربعين كاتب بمحفوظات الاشغال ، درجة ثامنة — فهو من المنسيين في الحكومة كما أنه من المنسيين في الدنيا — مرتب خمسة عشر جنيها !) »١٨.

ج — **حسنين بطل بداية ونهاية** : يموت والده في بداية القصة وهو لا يزال طالبا ثانويا ، فتسوء حال العائلة . وتظهر بذور التمرد على أوضاع العائلة الطبقية عند حسنين منذ البداية فهو — كما يخبرنا الكاتب — « كان حريصا على ألا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الاسرة » ١٩ . ونسمعه يقول لنفسه « ... لا مقبرة ولا يحزنون . لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا ؟ » ٢٠ كما نسمعه يعلن « — لن تكون أختي خياطة ، كلا ، ولن أكون أخا لخياطة » ٢١ . وهو يتساءل كمحجوب « — هل يثير موت رجل كأحمد بك حزنا في نفوس ورثته ؟ » ٢٢ ويرفض أن يستسلم للاقدار : « .. ان من يستسلم للاقدار يشجعها على التمادي في طغيانها ! » ٢٣ « ويناقش ربه الحساب ، متسائلا — فيما يشبه التحدي — عن أسرار حكمته التي جعلت من الدنيا ما هو كائن ! » ٢٤

وبعد تخرجه التحق حسنين بالحربية « مدفوعا بنفسه الظمأى الى السيادة والقوة والمظهر الخلاب » ٢٥ وتفاقم تطلعه الطبقي وحساسيته الشديدة الناتجة عن شعور بالنقص الاجتماعي عندما أصبح ضابطا ، فترك خطيبته الاولى ، وانتقل بعائلته الى حي جديد وسعى الى الزواج من كريمة أحمد بك يسري أملا في أن يبلغ طبقة والدها العالية : ... « ما أجمل أن أملك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة » . ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة . فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدي في تسليم مسبلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بي قائلا « سيدي .. هذه هي الحياة . اذا ركبتها ركبت طبقة بأسرها ! » ٢٦

ولكنه أخفق في سعيه ، وتوالت المحن عليه ، وانتهى منتحرا قبل أن يحقق أيا من آماله ، وبعد أن عجز عن التخلص من ماضيه : « ••• طالما أحببت أن أمحو الماضي ، ولكن الماضي التهـــم الحاضر ، ولم يكن الماضي المخيف الا نفسي • لماذا لا أواصل الحياة بهذه الاعباء ؟ لا أستطيع • كان ينبغي أن أحب الحياة الى النهاية ، ومهما يكن من أمر ، ولكن في طبيعتنا خطأ جوهري لا أدريه• لقد قضي عليه ••• » ٢٧

د ـ كمال عبد الجواد ـ بطل الثلاثية : لا تشغل كمال مشكلة التحـرك الاجتماعي الى طبقة أعلى في البداية على الاقل • فهو قد اختار دار المعلمين دون الحقوق ـ برغم تحذيرات والده من أن مهنة التعليم مهنة « يختلط فيها الافندي بالمجاور ، خالية من كل معاني العظمة والجلال » ٢٨ ـ سعيا وراء ثقافة الفكر وأقنع نفسه بأنه لا يريد الزواج من عايدة شداد المنتمية الى طبقة أعلى مـــن طبقته ، لانه يسعى الى الحب الابدي • ولكن حلول كمال المثالية هذه لمشكلـة الفوارق الطبقية لم تصمد كثيرا فنراه يكذب أمام أصدقائه الارستقراطيين معلنا أن أباه تاجر جملة بالبقالة ٢٩ • ونسمعه يوصي ابن أخيه أحمد « ـ ولكـن ينبغي أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالا من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الاداب • سيكون مستقبلك اذا اخترب الآداب • سيكون مستقبلك اذا اخترت الآداب في التعليم وهو مهنة شاقة ولا جاه لها •• » ٣٠ كما أنه يقف موقف الشك والتردد من زواج أحمد هذا من سوسن حماد الفتاة المنتمية الى الطبقة العاملة مسايرة لما سماه بالواقع الاجتماعي ٣١ • وعندما يسمع بزواج بدور أخت عايدة التي تاق الى الزواج منها دون أن يفلح في اعلان رغبته نراه يتمنى أن يكون خطيبها من طبقة أدنى من طبقة المعلمين التي ينتمي هو اليها ٣٢ . وكأنه قد ندم على اختياره طريق الفكر فنراه كلما أقبل على ادارة مجلة الفكر « ذكره موضعها الارضي المظلم ورثاثة أثاثها بمكانـــة « الفكر » في بلده ، وبمكانته هو في مجتمعه •• » ٣٣ فما وجد الا الخمرة ملاذا يخلصه من عذابه الناشىء من عجزه عن تحقيق ذاته في ظل المجتمع المريض • كل شيء يبـدو مضحكا ولكن الخمر ستظل قبلة المحزون ، وتتغير الاوضاع فيعلو فؤاد جميل الحمزاوي ويسفل كمال أحمد عبد الجـواد ، ولكن الخمر ستظـــل بشاشة المكروب ، ويوما يحمل كمال رضوان على كتفه ليدلله ثم يجيء يوم فيحمـل رضوان كمال ليقيله من عثرته ولكن الخمر ستظل نجدة الملهوف ••• » ٣٤ .

هذه الحلول الفردية التي كان يلجأ اليها أبطال قصص محفوظ والحلول الاخرى المشابهة التي لجأت اليها بعض شخصياته الثانوية كانت كما لاحظنا تنتهي دائما الى طريق مسدود • وكأنما أراد الكاتب ، باصراره على ايصالها الى تلك النهاية ، أن يؤكد ادانته لها في الوقت الذي كان فيه يؤكد أيضا مسؤولية المجتمع الذي لم يكن يتيح للفرد أن يحقق ذاته وأن يعيش حياة كريمة وذلك بسبب الفساد وسيطرة طبقة صغيرة على السلطة واستئثارها بالمناصب وبثروة البلد ، وتركها جماهير الشعب الواسعة تعـاني من الفقر وعـــدم التكافؤ في الفرص • وهكذا فان القضية ، كما يطرحها الكاتب ، ليست فقط قضية التحرك

الطبقي ومعاناة الطبقة الوسطى من الحواجز التي كانت تقف في وجه تقدمها الاجتماعي ، بل هي أيضا قضية مجتمع مريض لا تتحقق فيه العدالة الاجتماعية والمساواة والكفاية ، ويكثر فيه بالتالي الوصوليون والانتهازيون والمعقدون المنطوون على أنفسهم ، ولا سيما بين الفئات المثقفة المنتمية الى البرجوازية الصغيرة لان وضع هذه الطبقة الانتقالي ووعي أبنائها وثقافتهم يجعلهم غير راضين عن الاوضاع الشاذة التي لا تتيح لهم التقدم ومن ثم يبدأون النضال « اما على المستوى الفردي للخروج من الطبقة وهذه هي الانتهازية ، واما على المستوى الاجتماعي وهذا هو الموقف الثوري ٣٥ وهكذا فان أبطال محفوظ ينطلقون من معاناة جادة في ظل وضع اجتماعي غير سليم ويشتركون جميعا في غير ذلك الوضع • ولكنهم ، بدل مواجهته بشجاعة ، يختارون حلولا فردية لا تؤدي الى نتيجة ايجابية ، وهذا هو سر نهايتهم المأساوية • أما الحلول الاجتماعية فلا يختارها الا أشخاص لا يلعبون دورا رئيسيا في قصص محفوظ وهذا ما سنعالجه فيما يلي •

٢ ـ الحلول الاجتماعية :

أشرنا من قبل الى أن محجوب استطاع أن يفهم حقيقة الاوضاع في مصر وسيطرة طبقة واحدة على الحكم والمراكز العالية في الدولة • ولكنه راح ، مع ذلك ، يحاول التسلق نحو الطبقة العليا متناسيا أن ذلك لا يحل مشكلة طبقته ولا مشكلة المجتمع المصري ، ولكننا نجد الى جانب محجوب في القاهرة الجديدة شخصيتين أخريين هما علي طه ومأمون رضوان لم يعانيا مثل محجوب من مشكلة الفقر ومن عوائق التحرك الاجتماعي ، ومع ذلك اختار كل منهما طريقا اجتماعيا يكفل حل مشكلة العدالة الاجتماعية من الاساس أعني الايمان بمبادىء معينة والسعي الى تطبيقها في المجتمع • فقد آمن علي طه بالعلم والاشتراكية ، واتفق مع بعض زملائه على اصدار مجلة أسبوعية للدعوة الى الاصلاح الاجتماعي • وآمن مأمون بالاسلام ومبادئه وضرورة تطبيقها في المجتمع •

وفي خان الخليلي عبر أحمد عاكف عن فهم لقضية المجتمع المصري اذ راح يخاطب والدته قائلا : « ••• كذب الرجال محور هذه الحياة الجليلة التي تشاهدين آثارها في معترك الحكومة والبرلمان والمصانع والمعاهد •• » ٣٦ ومع ذلك نراه لا يختار حلا ثوريا لمشكلته ومشكلة المجتمع • ولكننا نجد في القصة شخصية أخرى هو المحامي أحمد راشد الذي يؤمن بالمبدأ الشيوعي وبرسل العصر الحاضر : فرويد وكارل ماركس وغيرهما ويبحث عن حل جذري للمشكلة •

أما الشخصية الثورية في «بداية ونهاية» فهو حسين الذي عانى من الظلم الاجتماعي أكثر من أخيه حسنين ، اذ اضطرته الظروف لان يتوقف عن متابعة دراسته بعد البكالوريا • ومع ذلك نراه يقرن آلامه بآلام أسرته والام الناس ،

ويفهم الجانب الاجتماعي لمشكلته الخاصة « ... لست فردا ولكنني أمة مظلومة ، وهذا ما يولد في روح المقاومة ويعزيني بنوع من السعادة لا أدري كيف أسميه .. » ٣٧ كما نراه يحلم بمجتمع جديد أفضل من المجتمع الذي يعيش بين أحضانه موفقا بين الاشتراكية والدين . « ... كان في وحدته وضيقه يسعد بأحلام الاصلاح ويتخيل مجتمعا خيرا من المجتمع الذي يعيش بين أحضانه ، وحالا خيرا من الحال المقدورة له ، وأسعده الامل في امكان تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التي أشرب حبها والايمان بها منذ طفولته » ٣٨ .

وأخيرا ، نرى في الثلاثية شخصيتين اختارتا حلا اجتماعيا لمشكلات مصر وهما أحمد شوكت وأخوه عبد المنعم شوكت . يؤمن الاول بمبادىء الحزب الشيوعي ويعمل على تحقيقها في مصر . أما الثاني فقد اختار العمل تحت لواء حركة الاخوان المسلمين . وتنتهي الثلاثية بعكس قصص محفوظ الاخرى نهاية باعثة على الامل ، اذ انحاز كمال في النهاية الى صف أحمد وعبد المنعم ، وآمن بالثورة الابدية التي تعني « العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الاعلى ... » ٣٩ ، بعد أن تخلص من الشكوك التي أطاحت بكل معتقداته .

ويلاحظ أن معظم هذه الشخصيات الثورية التي اختارت الحل الاجتماعي لمشكلات المجتمع المصري في ذلك الدور لم تكن تعاني من تلك المشكلة بقدر الشخصيات التي اختارت الحلول الفردية . فعلي طه ومأمون رضوان في القاهرة الجديدة لم يكونا فقيرين كمحجوب وأحمد شوكت وعبد المنعم شوكت في الثلاثية لم تكن أحوالهما المعاشية سيئة . ولعل هذا يعني أن عوامل أخرى غير العامل الاقتصادي كانت تؤثر في اختيار الافراد للطريق الاجتماعي ، وأن هؤلاء الافراد ، كما يقول محفوظ نفسه ، « تلقوا مبادىء الثورة عن طريق الثقافة العقلية لا المعاناة الطبقية » ٤٠ .

موقف الطبقات الوسطى من الطبقات الاجتماعية الاخرى

كانت الطبقة العليا في الفترة التي تتحدث عنها قصص محفوظ مسيطرة على الحكم ومستأثرة به كما لاحظنا ، ولم يشاركها فيه الا أقلية من الطبقة الوسطى استطاعت أن تتجاوز طبقتها الاصلية بالعلم أو الثروة أو الانحراف وهي الوسائط الثلاثة للتحرك الاجتماعي التي يمكن أن تستنتج من هذه القصص . ويصور محفوظ الطبقة العليا متعالية على الشعب ، يائسة من اصلاح شأنه ، راتعة في الفساد والزيف والنفاق ، وملوثة للجو السياسي في البلاد . نسمع في القاهرة الجديدة الحديث التالي بين جماعة من أبناء هذه الطبقة :

ـ .. أما مصر فيستطيع أي حاكم أن يستبد بها دون كبير خطر .

ـ الواقع أن أي نظام من أنظمة الحكم يستحيل ديكتاتورية اذا طبق في مصر ..

ــ هذا وطن « ضربك شرف يا أفندينا » ٠٠٠

ــ . . . .

ــ لن تظفر مصر باستقلالها أبدا ٠٠٠

ــ استبدت بها عادة الحكم الاجنبي ٠

ــ وما حاجة مصر الى الاستقلال ؟ ٠٠ أما الزعماء فيتعاركون على الحكم ، وأما الشعب فغير أهل للاستقلال ٠

(ويسأل محجوب صاحب القول الاخير) :

ــ ألا يسوؤك أن تقول هذا القول عن قومك ٠

(فيجيبه هذا) ــ لا تجري في عروقي نقطة دم مصرية واحدة ٠

(محجوب) ــ فما قولك في خطبة الباشا والدك في مجلس الشيوخ ، عند مناقشة الميزانية ، التي دافع بها عن الفلاح دفاعا وطنيا مجيدا ٠

(الاخر) ــ هذا في مجلس الشيوخ ، أما في البيت فكلانا متفق ــ أنا ووالدي ــ على أن أنجح سياسة مع الفلاح هي : السوط !

أما شبان هذه الطبقة فليس بينهم « من يتحدث عن العروبة ، ولا من يناقش في الاشتراكية أو أوجست كونت ٠ ومن بينهم جامعيون كثيرون ، ولكنهم متأقلمون ، فلا كلمة واحدة تذكر بحدائق الاورمان أو دار الطلبة » ٤١ .

لذلك كان من الطبيعي أن تكون الهوة واسعة بين هذه الطبقة وبين الطبقة الوسطى الصغيرة التي لم تكن تختلف كثيرا عن جماهير الشعب المصري من حيث وضعها الاقتصادي ومواقفها السياسية ٠ وكان من الطبيعي أيضا أن يوجد نوع من الجفاء أو العداوة بين المستأثرين بالسلطة والوضع الاجتماعي والاقتصادي الافضل ، وبين المحرومين من كل ذلك ولا سيما الواعين لحرمانهم منهم ٠ ولكننا نجد فرقا بين موقف أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة الذين اختاروا حلولا فردية لمشكلاتهم من الطبقة العليا وموقف الذين اختاروا حلا اجتماعيا لها ٠ فالفريق الاول يحاول التقرب من الطبقة العليا ومصاهرتها والاختلاط بها سعيا وراء بلوغ مرتبتها وان كان لا يخلو من حقد عليها وحسد لها (محجوب وحسنين) ، ولا يقوم بما من شأنه زعزعة سيطرتها ، بل يشاركها الفساد والزيف اذا حظي بالنجاح وبلغ صفوفها (سالم الاخشيدي ومحجوب) ٠ أو يكتفي بانتقادها دون القيام بعمل ايجابي لتصحيح الاوضاع اذا لم يلاق النجاح (أحمد عاكف وكمال عبد الجواد) ٠ أما الفريق الثاني فان عداوته للطبقة العليا واضحة ، وهو يسعى الى هدمها وهدم سيطرتها عن طريق العمل الحزبي المنظم أو الدعوة الى مبادىء معينة (أحمد راشد وأحمد شوكت) ٠

ويظهر من قصص محفوظ ، مع ذلك ، أنه وجد نوع من الاتصال بين الطبقتين العليا والوسطى أمنته القرابة أحيانا ، وهكذا كان السيد محمد عفت في الثلاثية صلة الوصل بين جماعته الاصلية المكونة من تجار وبين من انضم اليها بمضي الزمن من موظفين ممتازين ، نظرا لما يربطه ببعض الشخصيات

المصرية المهمة من صلات القربى [٤٢] . كذلك وجدت صداقات بين أفراد من الطبقتين (كامل علي وأحمد بك يسري في بداية ونهاية . وكمال عبد الجواد وحسنين شداد في الثلاثية) . ولكن ذلك لم يكن يلغي الفواصل بين الطبقتين . فلا أحمد بك يسري قبل أن يزوج ابنته بهية من حسنين كامل علي ، ولا عايدة شداد قبلت الزواج من كمال . مما يؤكد النزعة المتعالية التي اتسمت بها الطبقة العليا ووجود حواجز اجتماعية قوية بين الطبقات .

أما الطبقة السفلى فيصورها محفوظ غارقة في بحر من الجهل والخرافات غير واعية لمشكلاتها ، ومعتمدة في مواجهة تلك المشكلات على قدرية سلبية « والمكتوب حتما تشوفه العين » . ويمثل هذه الطبقة أحسن تمثيل نونو الخطاط في خان الخليلي الذي حمل شعار « ملعون أبو الدنيا » . ونسمعه يشرح فلسفته :« اللهم احفظنا . الا أنه من الحكمة ألا نركب الهم أنفسنا . دع الهموم واضحك واعبد الله . الدنيا دنيا الله ، والفعل فعله ، والامر أمره ، والنهاية له . فعلام التفكير والحزن ؟!.. ملعون أبو الدنيا ؟ » [٤٣]

ومثل نونو الخطاط المعلم زفته في القصة ذاتها الذي « يزدرد نصف درهم من الافيون كل أربع ساعات ، ويمضي في عمله كالحالم لا يفيق أو بالاحرى لا يرغب أن يفيق » [٤٥] .

ويبدو من قصص محفوظ أن الاتصال بين أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة وأبناء الطبقة السفلى كان موجودا . فنراهم مجتمعين معا في مجالس الحشيش في خان الخليلي لان مشكلات العيش كانت مشتركة بينهم ، ولم تكن أحوال الطبقة الوسطى الصغيرة أفضل كثيرا من أحوال عامة الشعب . وقد تنبه الى هذه الحقيقة أبناء الطبقة الوسطى الثوريون فتبنوا حلولا جذرية لهذه المشكلات المشتركة . أما الذين اختاروا طريق التطلع الطبقي والحلول الفردية فنراهم متكبرين أحيانا على أبناء الطبقة الدنيا . ففي حين يقبل أحمد شوكت دون تردد على الزواج من سوسن حماد الاتية من الطبقة العاملة ، نرى كمال عبد الجواد يقف موقفا حذرا من ذلك الزواج . كما يعارض الزواج والدا أحمد لاسباب طبقية . وحسنين في بداية ونهاية لا يعجبه حضور أفراد من الطبقة الدنيا في جنازة والده ويعتبر غيابهم أشرف من حضورهم [٤٦] .

العائلة البورجوازية :

تواجه الطبقة الوسطى قلقها الاجتماعي الناشىء عن وضعها الوسطي المقلقل بتماسك عائلي تضحي معه العائلة ملاذا عاطفيا لابناء هذه الطبقة . ويشير ألينور باربر في كتابه عن البرجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر الى هذه الحقيقة موضحا أن الحياة العائلية كان لها أهمية عاطفية أكبر بالنسبة للبرجوازية منها بالنسبة للنبلاء ، وأن التأكيد على أهمية العائلة والروابط

العاطفية بين الآباء والابناء كان واضحا في الدراما والفن على حد سواء في القرن الثامن عشر ٤٧ .

وفي قصص محفوظ يبدو التماسك العائلي واضحا في كافة قطاعات الطبقة الوسطى التي يعالج مشكلاتها . وأول ما يلفت النظر بالنسبة لعائلة أحمد عبد الجواد السيطرة التامة التي لرب العائلة ، والقسوة البالغة التي يعامل بها زوجته فلا يسمح لها بالخروج من البيت ، كما لا يسمح لها بابداء أية معارضة له : « أنا رجل ، الآمر الناهي ، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة ، فحاذري أن تدفعيني الى تأديبك » ٤٨ . وبمثل هذه القسوة يربي أولاده ، ويتحكم بمصائرهم . ولكن ، برغم ذلك ، نراه شديد العطف عليهم والحب لهم يتلهف على مساعدتهم واسعادهم فنسمعه يخاطب نفسه بعد مقابلة مع ابنه ياسين . « ... أحسبتني حقا سخطت على تبذيرك لاني كنت أرجو أن أزوجك بنقودك ؟!.. خسئت .. انما رجوت أن أجدك مقتصدا كي أزوجك بنقودي على وفرة النقود لديك ، هذا هو الرجاء الذي خيبت .. وهل حسبتني لم أفكر في اختيار زوجة لك الا بعد ضبطك متلبسا بالزنا .. كلا يا بغل اني أفكر في سعادتك منذ توظفت ، كيف لا وأنت أول من جعلني أبا .. وأنت شريكي في العذاب الذي أصلتنا اياه أمك اللعينة ؟!.. ثم أليس من حقي أن أفرح بك خصوصا وأنه علي أن أنتظر طويلا حتى أفرح بالثور الاخر أخيك أسير العشق ويا ترى من يعيش » ٤٩ .

ونراه شديد الحرص على كرامة خديجة ابنته « من يستهن بخديجه فكأنما استهان بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه في صميم كرامته » ٥٠ . كما نعلم أنه كان يتألم جدا كلما ذكر أنه منع فهمي ابنه الذي استشهد من أن يتزوج مريم جارتهم « ... ليته كان صادقا اذن لاعفاه من عذاب يؤرقه كلما ذكر أنه وقف يوما عثرة في سبيل سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربما مات تعيس القلب أو ناقما عليه استبداده وتعنته ، تلك الالام التي طالما نهشت قلبه ، هل يقدر ياسين أن يعفيه منها ؟ » ٥١ .

ويلاحظ ، من جهة أخرى ، أن أبناء أحمد عبد الجواد وزوجته يبادلونه الحب ويحترمونه جدا برغم معاملته القاسية لهم ، وأن الاخ الاصغر يحترم الاخ الاكبر ، وأن معاملة الاب لابنه تتغير بعد أن ينهي علومه فيعطيه حرية نسبية . وتحرص العائلة على أن تزوج بناتها مبتدئة بالاكبر سنا . كما تحرص على المحافظة على العرض ، وعدم التعرض لاعراض الجيران .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ثورة كمال عبد الجواد على الاسرة : « .. لذلك أقترح — وظلام هذه الحجرة شهيد — أن تلغى الاسرة — هذه الحفرة التي يتجمع فيها الماء الآسن — وأن تزول الابوة والامومة .. » ٥٢ لم تكن سوى جزء من أزمته النفسية والفكرية ، ولم تتعد النطاق النظري لانه ، حتى بعد هذه الثورة ، كان لا يزال يزور الجامع مع والده كل يوم جمعة ، ويمثل دور المؤمن حتى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الابوة واحتراما للناس ٥٣ . ولكن هذه

الثورة قد تعبر ، في الوقت ذاته عن معاناة كمال من القيود التي كان انتماؤه العائلي يفرضها على حريته الفردية والتي تمثلت في محاولة أبيه أن يفرض عليه اختيار كلية الحقوق ومحاكمته لا لانه نشر مقالا في « البلاغ الاسبوعي » شرح فيه نظرية دارون في النشوء والارتقاء • ويتجلى في الحوار الذي دار بينهما في كلا الحالتين ظهور فجوة حضارية بين الاب والابن نشأت عن تبني الاخير لقيم جديدة تختلف عن قيم أبيه جاءته من مطالعاته وتقوم على تقديس الفكر والسعي وراء الحقيقة • كذلك يمكننا تلمس مثل هذه الفجوة الحضارية في محاكمة أحمد عبد الجواد لابنه فهمي الذي اختار المشاركة في ثورة ١٩١٩ بالعمل الفعلي ، وكانت المبادىء والقيم التي توجه فهمي في اختياره ذاك غريبة على الوالد الذي كان يقدم حب السلامة لنفسه ولعائلته على حب الوطن والجهاد من أجل قضيته •

واذا كان أبناء أحمد عبد الجواد قد حاولوا أن يتحرروا من القيود التي كان يفرضها عليهم ولاؤهم العائلي بحذر ومع مراعاة رأي الاب وحقوقه قدر الامكان ، فان أحفاده تحرروا من تلك القيود تماما ، وصار لهم الحق في تقرير مصيرهم دون أن يكون لوالديهم سوى حق التوجيه غير الملزم • وهكذا تزوج أحمد شوكت قبل أن ينال موافقة والديه ، واشترك مع أخيه في حزبين سياسيين ممنوعين برغم معارضة والدهما •

ولا نجد شبيها لاحمد عبد الجواد في قصص محفوظ الا رضوان الحسيني في زقاق المدق الذي يعامل زوجته بحزم ، ويتصرف في بيته تصرفا مخالفا تماما لتصرفه مع الناس خارجه مثل أحمد • ويشير الكاتب الى السبب النفسي المحتمل لهذه الازدواجية ، ولكنه يؤكد ، في الوقت ذاته ، الجانب الاجتماعي للمشكلة • « ••• ومن عجب أن يكون هذا الرجل ـ الذي طار صيته في الخير والحب والجود كل مطار ـ حازما حاسما وعلى فظاظة وحرص في بيته ! ربما قيل انه وقد آيس من كل سلطان حقيقي في هذه الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذي يذعن لارادته ، ألا وهو زوجه !•• ولكن ينبغي ألا نسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمكان ، وما تسنه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها ، وما تراه أكثرية أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقا لسعادتها هي نفسها قبل كل شيء »٥٤ •

أما بقية عائلات الطبقة الوسطى التي تظهر في قصص محفوظ فليس فيها مثل هذا التشدد • ولكن الرابطة العائلية تبقى مهمة وواضحة • ففي القاهرة الجديدة نرى محجوب دائم الذكر لوالديه برغم تخليه عن كل القيم وفي أسوأ ساعاته • يذكرهما عندما يقرر الزواج من عشيقة الوزير • « ••• ثم ذكر في طريقه والديه !•• وانقبض صدره على رغمه وفرق • وتفصد جبينه عرقا • تمثلت له والدته التي تؤمن بأنه لا يخطىء أبدا ، وتمثل له والده ، الرجل الريفي ، بطيبته وتقواه وغيرته • انه يتزوج دون علمهما ، ولا يدري متى يعلمان ، ولكن هل يحتمل أن يعلما بالحقيقة ، لا فلسفته ولا أعصابه بمستطيعة

أن تجعله يواجه مثل هذا التحدي !٠٠ ان ذكرى والديه شبح مخيف فليطرده عن مخيلته » ٥٥ ٠

ويذكرهما عندما يتسلم أول مرتب ٠ ويحاول محجوب أن يكفر بالاسرة « ٠٠٠ ما البنوة ؟ أليست عادة سخيفة لاحقة بظاهرة الاسرة ؟ بلى ، وسيكفر ولكنه لا يفلح في ذلك بل يظـل ٥٦. بها كما كفر بأخوات لها من قبل ٠٠٠ » يذكر والديه حتى النهاية ٠ أما كفره بالزواج والعرض وغيرهما من القيم المتعلقة بالاسرة فلم يحرره من العذاب والتمزق ٠

ويحرص محفوظ على تأكيد أهمية الرابطة الاسروية بالنسبة للطبقة الوسطى عن طريق اظهارها من خلال أكثر شخصيات قصصه كفرا بالقيم مثل محجوب كما رأينا ، ومثل حسن في « بداية ونهاية » الذي يعلمنا الكاتب أن حب أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التي يخفق بها قلبه ! وأن النزاع بين ضروريات حياته وأنانيته من ناحية وحبه لاسرته من ناحية أخرى لا يهدأ في نفسه ٥٧ . ونرى في القصة ذاتها حرص الاسرة على تزويج فتاتها تأمينا لمستقبلها فنسمع الام تخاطب ابنها حسين ٠ « لا يقلقني شيء في حياتي كما يقلقني مستقبل أختك نفيسة ٠ أود لو أغمض عيني ثم أفتحهما فأجدها في بيت زوجها ٠ ولكــن كيف ؟! لسنا نملك لتجهيزها مليما ، وأخوف ما أخاف أن أموت قبل أن أطمئن عليها ٠ أنتم رجال أما هي فمن الولايا اللاتي لا نصير لهن »٥٨ ٠

ولعل تضحية حسين هذا من أجل أخيه حسنين وتضحية أحمد عاكف في خان الخليلي من أجل أخيه رشدي به برغم أنه استولى على قلب الفتاة التي كان أحمد يحبها من مظاهر هذه الرابطة الاسروية القوية ٠ كذلك ربما كان تعلق كامل رؤبة لاظ المرضي بوالدته في السراب مرتبطا بهذا الامر من بعض وجه ٠

ولكن التماسك العائلي لا يقتصر على الطبقة الوسطى فيما يبدو ٠ ففي « زقاق المدق » نلاحظ تعلق زوجة المعلم كرشة بابنها حسين بحيث « ترجو أن تستبقيه حتى بعد زواجه حين يتزوج » ٥٩ ٠ ونراها تفرح جدا عندما يعود الى الزقاق بعد أن لم يعد له عمل مع الجيش البريطاني « عدت يا بني !٠٠ الحمد لله ٠٠ الحمد لله الذي أثابك الى رشدك ، وحماك من وسوسة الشيطان ، أدخل بيتك (وضحكت في انفعال) ٠ أدخل يا غادر ٠٠ لكم أقضضت مضجعي ، وقطعت قلبي ٠٠٠ » ٦٠ كذلك فان والده يفرح به وبزوجته ويرحب بهما في بيته برغم ما كان بينه وبين ابنه من خصام ٠

ومع ذلك يلاحظ أن عائلات الطبقـــة الوسطى صغيرة ، ولا يحدث أن يتزوج أي من أبناء هذه الطبقة أكثر من زوجة واحدة في آن معا في قصص محفوظ ٠ أما نونو الخطاط المنتسب الى الطبقة السفلى فقد تزوج أربع نساء وكان له أحد عشر ولدا منهن ٠ وهو ينظر الى المرأة نظرة احتقار ٠

ويلاحظ أخيرا أن النساء في الطبقات العليا يعاملن على قدم المساواة مع

الرجال • ولا تدلنا قصص محفوظ على مدى التماسك العائلي في عائلات هذه الطبقة •

دور المرأة البورجوازية

من الامور اللافتة للنظر في قصص محفوظ أن المرأة لا تلعب دور البطولة في أي من هذه القصص • كذلك لا نقابل الا امرأة موظفة واحدة من الطبقة الوسطي هي رباب جبر المدرسة في «السراب» • ومع أن بنات أحمد عبد الجواد لا يخرجن من البيت ، ولم يذهبن الى المدرسة ، ومع أن كامل علي لم يسمح لابنته نفيسة بأن تكمل علومها ، الأن بعض بنات الطبقة الوسطى الاخريات مثل نوال خليل في « خان الخليلي » بدأن يذهبن الى المدرسة ، كما أن هنالك اشارات الى أن البنات بدأن يدخلن الجامعة ويتوظفن • وهكذا بدأ المجتمع يتحول تدريجيا من مجتمع يسيطر فيه الرجال ، ويقومون بكل الاعمال الى مجتمع تشارك فيه المرأة الرجل في العمل • ولكن ذلك الامر كان لا يزال في بدايته عندئذ فيما يبدو • وهكذا فاننا نرى أن الزواج ما يزال قبلة الفتيات • فهذه نوال خليل ذاتها تعد الزواج غايتها وليس العلم والعمل • « ولكنها انضمت في الواقع الى قافلة العلم ، وليس العلم ما تنشد ، ولا المدرسة بالمأوى الذي يهفو اليه فؤادها ، فأحلامها لا تفارق البيت ، ولن تزال تعد أمها استاذتها الاولى تتلقى عنها فنون الحياة المنزلية من طهي وحياكة وتطريز ، وما رأت في العلم يوما الا زينة تحلي بها أنوثتها وحلية تغلي من مهرها • فتركزت حياتها في هدف واحد : القلب أو البيت أو الزواج • أليس أول دعاء دعيت به « العروس » •• وانه لاجمل دعاء ، وانها لتتلهف على أن تكونه ، وترقب حظها في صبر ورجاء ولذلك قدست الزواج قبل أهليتها له بدهر طويل ، وأحبت « الرجل » وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة • فكانت ثمرة دانية القطوف ترصد من يجنيها » ٦١.

ومثل نوال نفيسة في بداية ونهاية والتي تتجلى في سيرتها مأساة فتيات الطبقة الوسطى الصغيرة في ذلك الدور بأبشع صورها • تطمح الى الزواج كسائر بنات طبقتها ، ولكن دمامتها لا تسهل ذلك الامر • ويموت والدها فيضاف بعدان جديدان الى المشكلة : تدن في المرتبة الاجتماعية ، وضيق اقتصادي • « وحيدة ، وحيدة ، في يأسي وألمي ، ثلاثة وعشرون عاما ! ما أبشع هذا • لم يأت الزوج بالامس والدنيا دنيا فكيف يأتي اليوم أو غدا ؟! وهبه جاء راضيا بالزواج من خياطة فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج ؟ لماذا أفكر في هذا ؟ لا فائدة ، لا فائدة ، سوف أظل هكذا ما حييت » ٦٢ •

وتجد نفيسة في سلمان البقال بعض أمل ينقذها من يأسها ، فتنقاد وراءه ووراء وعوده بالزواج منها • ولكنها لا تلبث أن تكتشف أن أملها لم يكن في محله لان سلمان تزوج من غيرها • وهكذا أدى عجزها عن تحقيق ذاتها بعد كل

التنازلات التي أعطتها بقبولها فكرة الزواج من سلمان ذاتــه الى سقوطهـا واستسلامها لرغبات جسدها وتحولها الى مومس ٠

ونفيسة ليست الفتاة الوحيدة التي تنتهي الى مومس في قصص محفوظ ، بل هنالك فتاتان أخريان سلكتا الطريق ذاته هما احسان شحاته في « القاهرة الجديدة » وحميدة في « زقاق المدق » ٠ ويبدو أن فقرهما وطموحهما الشديد أسهما بشكل رئيسي في ايصالهما الى ما وصلتا اليه اذ كانتا في وصوليتهما لا تختلفان عن محجوب أو سالم الاخشيدي ٠

واذا كانت فتيات محفوظ مترددات في قبول الدور الجديد الذي يفرضه عليهن علمهن وخروجهن الى المجتمع ، فنراهـــن متمسكات بهدف الــزواج ، ومعرضات عن الوظيفة ٠ فان شخصيات محفوظ من الشبان الذين تبنوا حلولا اجتماعية لمشكلات المجتمع المصري آنذاك كانوا مدركين تمام الادراك الــدور المساوي لدور الرجل الذي يجب أن تقوم به المرأة في المجتمع ٠ فعلي طه في القاهرة الجديدة يرى أن المرأة شريكة الرجل في حياته « ولكنها شركة دعامتها – في نظري – ينبغي أن تكون المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات » ٦٣ ٠ ويرى في احسان شحاتة التي أحبها حبيبة ، وزميلة ، وندا محترما ، ويريد أن يكونا عقلا واحدا وفنا واحدا ومهنة واحدة ، فلا يحرم المجتمع عضوا نافعـا مثلها ، مع انها هي كانت تود لو تنقطع عن الدراسة وتتزوج فلا تعمل الا في البيت ٦٤ ٠ وأحمد راشد في خان الخليلي ينصح نوال خليل التي كانت تقدم الزواج على أي شيء آخر وتجعله هدفها الوحيد في الحياة بقوله ٠ « يخيل الي أنك لا تحبين العلم كما يجب وان لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فأحبيه كما تحبين الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الانسان ، وينبغي أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذى جسمك بالطعام ويتمثلـــه ٠ أين الشوق الى أسرار الوجود ؟ ٠٠ أين اللهفة على المعرفة ؟٠٠ لا يجوز أن يتخلف قلب المرأة عن قلب الرجل في طريق العرفان والمجهول ٠٠ » ٦٥

كذلك يؤمن أحمد شوكت بالمساواة بين الرجل والمرأة ٠ ويدعو ابنة خالته نعيمة الى ابداء رأيها في فؤاد الحمزاوي الذي أراد أن يخطبها ٠

ولكن الذين رأوا الحل كامنا في العودة الى الاسلام لم يكونوا واضحــين بالنسبة لدور المرأة في المجتمع ٠ فالمرأة ، في رأي مأمون رضوان « طمأنينـة الدنيا ، وسبيل وطيء لطمأنينة الاخرة » ٦٦ ٠ ويكتفي عبد المنعم شوكـت بالقول ان الاسلام سوى بين الرجل والمرأة ٠

أما الذين تبنوا حلولا فردية لمشكلات المجتمع ومشكلاتهم الخاصة فكانوا غير معترفين للمرأة بدورها الجديد المساوي لدور الرجل ٠ فمحجوب عبد الدئم يرى أن أحقر رجل بامرأتين ٦٧ ، ورشدي عاكف يرى أن المرض والمــرأة يلتهمان الشباب ويبددان الامال ٦٨ ٠ ولا يختلفان عن الذين لم يحصلوا أية ثقافة مثل أحمد عبد الجواد أو حتى نونو الخطاط الذي يرى أن « المرأة فـي

الاصل عجينة طرية ، وعليك أن تشكلها كما تشاء » • وانها « حيوان ناقص العقل والدين فكملها بأمرين ، بالسياسة والعصا ! » ٦٩ وهكذا لا تخلو تصرفات هذا الفريق الجنسية من شذوذ لان العقائد والقيم الجديدة لم تلطف عندهم المشكلة الجنسية الناشئة عن عدم اعتراف المجتمع بأية علاقة بين الرجل والمرأة غير الزواج • فمحجوب « كان يرى حياته مليئة بالمشكلات ، ويضع على رأسها جميعا مشكلته الجنسية » ٧٠ • وهكذا فهو لا يتورع عن معاشرة جامعة أعقاب سجائر ، كما يحاول الاعتداء على ابنة قريبه التي رافقته الى الحفريات • وياسين عبد الجواد لم يتورع عن محاولة الاعتداء على ضاربة رمل عوراء وجارية سوداء وخادمة مسنة • ولياسين هذا فلسفة خاصة حول الجنس والمرأة والزواج • « فيم تطمع أية امرأة وراء البيت الزوجي والارتواء الجنسي ؟ لا شيء !•• انهن حيوانات أليفة كالحيوانات الاليفة ينبغي أن يعاملن ، أجل لا يجوز للحيوانات الاليفة أن تتطفل على حياتنا الخاصة وانما عليها أن تنتظر في البيت حتى تفرغ لمداعبتها ، أن أكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت ، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد ، خلاصتها في النهاية عدد محدود من الحركات والاصوات لا تزال تتكرر وتتكرر •• حتى تنقلب الحركة والجمود سيين ، والصوت والصمت توأمين ، كلا كلا ، ما لهذا تزوجت •• ان قيل انها بيضاء ، الست ذا مآرب في السمراء ، بل والسوداء •• وان قيل انها مدملجة فما عزئي عن النحيلة والجسيمة ، أو انها مهذبة سليلة نبل وكرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو ؟ » ٧١•

أما حسنين بطل بداية ونهاية فيريد فتاة تصادقه ، ويتمنى لو نشأ في بيت مليء بالجواري ، ويرى أن أجمل منظر في الدنيا منظر امرأة تخلع ثيابها ، ونراه ينقض على خطيبته بهية مختلسا القبلات من شفتيها بالقوة • وأما كمال عبد الجواد فقد اختار أن يزور بيوت الدعارة بعد أن أخفقت حلوله المثالية لمشكلتي الجنس والزواج •

الطبقة الوسطى والدين

ان تقسيم شخصيات محفوظ الى شخصيات متبنية لحلول اجتماعية لمشكلة المجتمع المصري وشخصيات متبعة للحلول الفردية لا يفيد كثيرا في معالجة موضوع الطبقة الوسطى والدين كما أفاد في علاج موضوعات أخرى • لاننا نلاحظ أن أصحاب الحلول الاجتماعية أنفسهم ينقسمون الى فريقين بالنسبة الى موقفهم من الدين : فريق رأى الحل لكل المشكلات كامنا في العودة الى الاسلام وفريق رأى أن الحل يأتي عن طريق العلم والاشتراكية • واذا كان ايمان الفريق الاول بالدين لا يقف عند حد ، فان الفريق الثاني لا يرى في الدين سوى مجموعة أساطير وخرافات • ولكن هذين الفريقين مجتمعين لا يشكلان ،

كما سبق أن أشرنا ،القسم الاكبر ولا الاهم من شخصيات قصص محفوظ ولا ياتي في مقدمة الصورة الا أصحاب الحلول الفردية • وهؤلاء أيضا يبدو أنهم لا يتفقون في موقفهم من الدين فبينهم الملحد الكافر بكل شيء مثل محجوب ، ومنهم من يصوم ويصلي مثل أحمد عاكف • ومنهم من ينتقل من الايمان الى الالحاد مثل كمال عبد الجواد •

ويبدو من قصص محفوظ أن الدين وما تعلق به من خرافات وأساطير كان لا يزال يلعب دورا في حياة الطبقة الوسطى الصغيرة في ذلك الدور الذي تتحدث عنه هذه القصص وأن ممثليه كانوا يحظون بالاحترام عند كثير من فئات الشعب • وهكذا نرى أحمد عبد الجواد يصاحب أبناءه الى الصلاة كل يوم جمعة ، ونراه يغدق العطاء لمتولي عبد الصمد صانع الاحجبة للاولاد • ونرى كامل رؤبة لاظ في «السراب» يؤمن بالله ورسله وأوليائه والدعوات والتعاويذ والاضرحة ، وأحمد ورشدي عاكف يؤمنان بالعفاريت ، وسائر سكان الزقاق يجلون الشيخ درويش ويتبركون به • وقد وجد الشيخ درويش هذا في الدين ملاذا بعد أن عجز عن المحافظة على مرتبته الاجتماعية وكذلك وجد عاكف أفندي ملاذا في العبادة والصلاة بعد عزله من وظيفته •

ولكن انتشار الثقافة وتسرب الفلسفات الالحادية الغربية الى الجامعة المصرية بشكل خاص أدى الى ظهور تيارين : تيار يمثله الذين توطد ايمانهم بالاسلام بعد أن بنوه على علم بالدين ومعرفة به (فهمي عبد الجواد ومأمون رضوان وعبد المنعم شوكت) وتيار الذين كفروا بالدين (محجوب عبد الدائم وأحمد شوكت وعلي طه وكمال عبد الجواد) ولكن الذين كفروا بالدين كانوا فريقين أيضا : فريق تبنى مبادىء العلم والاشتراكية بدل الدين (علي طه وأحمد شوكت) وفريق حافظ على الالحاد دون أن يستبدل به ايمانا جديدا (محجوب) ، أو ظل حائرا لا يدري ماذا يختار من المبادىء (كمال عبد الجواد) • ويلاحظ أن الهموم الاجتماعية تشغل شخصيات محفوظ في هذه القصص أكثر مما تشغلها الهموم الميتافيزيقية مثل مشكلة الموت وعبثية الحياة الخ • ولا يستثنى من هذا الحكم الا كمال عبد الجواد الذي أعياه البحث عن الحقيقة • ولكن شك كمال وعذابه كانا عقليين فقط ، فظل قلبه مسلما بحقوق الشعب والوطن ووجوب الجهاد من أجلها ، وظل مستمسكا بحبل الحياة برغم شكه • أما في قصص محفوظ بعد الثلاثية فقد انعكس الاهتمام وصارت المشكلات الميتافيزيقية تحتل المكانة الاولى •

المجتمع الانتقالي والقيم المتغيرة : العوامل والنتائج

كان من نتيجة اصطدام مصر البلد المتخلف ذي المجتمع التقليدي بالحضارة الغربية منذ القرن التاسع عشر أن بدأ البنيان التقليدي لذلك المجتمع يهتز • وقد كان لذلك ردود فعل قوية وخاصة أن الحضارة الغربية اقترنت في أذهان

المسلمين بالدين المسيحي ، وحملت في طياتها تهديدا أكيدا للمؤسسات الدينية الاسلامية لانها حضارة علمانية غير مبنية على الدين ، فلا تتفق مع اعتبار الاسلام دينا ودولة في آن معا • وانقسم المفكرون المسلمون الى ثلاث فئات في موقفهم من هذه الحضارة الوافدة : فئة رأت احياء الدين الاسلامي والتمسك به واعتباره أساس الدولة الاسلامية ، وفئة رأت فصل الدين عن الدولة واعتماد المؤسسات الغربية كالبرلمانات والاحزاب الخ •• وفئة أخيرة رأت التوفيق بين الاسلام والحضارة الغربية ، وحاولت جهدها اثبات أن الدين الاسلامي في حقيقته لا يتناقض مع تلك الحضارة ، بل يتفق الى حد بعيد مع ما تدعو اليه • وقد ظل هذا الانقسام في الرأي مستمرا في القرن العشرين ، وان كانت الغلبة عمليا لاصحاب فكرة تبني المؤسسات الغربية اذ نشأت الاحزاب وقامت البرلمانات ، وصارت الفكرة القومية تنافس الفكرة الدينية حتى غلبتها في النهاية وكانت ثورة ١٩١٩ تتويجا لتلك الغلبة • ولكن أصحاب الفكرة الاسلامية ظلوا ناشطين في الدفاع عن فكرتهم والدعوة لها • وقد كان من نتيجة هذا التصادم المستمر بين هاتين الفكرتين أن نشأت حركات سياسية تؤيد كلا منهما ، كما تركت بعض فئات المثقفين في حيرة وتمزق لا تدري أيهما تختار •

وفي قصص محفوظ نرى التيارين الاسلامي والعلماني الغربي يسيران جنبا الى جنب ويتصادمان ، كما نرى فريق الممزقين الحائرين بين التيارين والحضارتين • وتتمثل الازمة الفكرية والنفسية الناشئة عن ذلك التصادم عند كمال عبد الجواد بنوع خاص • نشأ كمال مؤمنا ايمانا عميقا يصلي ويصوم ، ثم دخل الجامعة حيث أتيحت له فرصة الاطلاع على الفلسفات الالحادية فبدأ ايمانه يهتز ، وراحت مثالياته الدينية تتحطم الواحدة تلو الاخرى على صخرة النظريات العلمية والفلسفية من داروينية وغيرها ، وآمن بالعلم بدل الدين • « بلى ، وسيكون في تحرره من الدين أقرب الى الله مما كان في ايمانه به ، فما الدين الحقيقي الا العلم ، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الانبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم والرسالة لهم ، وهكذا يستيقظ من حلم الاساطير ليواجه الحقيقة المجردة ، مخلفا وراءه تلك الليلة العاصفة ـ التي صارع فيها الجهل حتى صرعه ـ حدا فاصلا بين ماض خرافي وغد نوراني ، بذلك تتفتح له السبل المؤدية الى الله ، سبل العلم والخير والجمال ، وبذلك يودع الماضي بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة •• »٧٢ •

ولكن مثالياته الجديدة هذه ما لبثت أن تحطمت هي الاخرى على صخرة شكوكه المتزايدة : « قد يلوذ من الوحشية بوحدة الوجود عند سبينوزا ، أو يتعزى عن هوان شأنه بالمشاركة في الانتصار على الرغبة مع شوبنهور ، أو يهون من احساسه بتعاسة عائشة بجرعة من فلسفة ليبنتز في تفسير الشر ، أو يروي قلبه المتعطش الى الحب من شاعرية برجسون ، بيد أن جهاده المتواصل لم يجد في تقليم مخالب الحيرة التي تبلغ حد العذاب ، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الآدمي دلالا وتمنعا ولعبا بالعقول واثارة للشك والغيرة مع اغراء عنيف بالتملك والوصال ، وهي كالمعشوق الآدمي عرضة لان تكون ذات وجوه

وأهواء وتقلبات ولا تخلو في كثير من الاحايين من مكر وخداع وقوة وكبرياء»٧٣.

وانتهى به المطاف الى الشك المطلق في كل شيء : في العلم والفلسفة والقيم « ــ حتى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الارواح غرقت فيها حتى أذني ، ودار رأسي ، وما زال يدور ، في فضاء مخيف ، ما الحقيقة ؟ ، مـا القيم ؟ ، ما أي شيء ؟ اني أحيانا أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشر ! » ٧٤.

وتتجلى النتائج المدمرة لهذا الصدام في شخصية محجوب عبد الدائم الذي تحرر من كل شيء : من القيم والمثل والعقائد والمبادىء ، ومن التراث الاجتماعي عامة • كان يرى أن أصدق معادلة في الدنيا هي : الدين + العلم + الفلسفة + الاخلاق = طظ • وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه ، يتفق مع ديكارت على أن النفس أساس الوجود ، « ثم يقول بعد ذلك ان نفسه أهم ما في الوجود وسعادتها هي كل ما يعنيه • ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيون من أن المجتمع خالق القيم الاخلاقية والدينية جميعا ، ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة في سبيل نفسه وسعادتها ! واذا كان العلم هو الذي هيأ له التحرر من الاوهام ، فليس يعني هذا أن يؤمن به أو أن يهبه حياته، ولكن حسبه أن يستغله وأن يفيد منه• فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين ، وانما غايته في دنياه : اللذة والقوة ، بأيسر السبل والوسائل ، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة » ٧٥ • ويشير محفوظ الى ظروف نشأة محجوب وفقره كأسباب محتملة لاتجاهه هذا ، ولكنه يؤكد كذلك أن من أسبابه تعرضه للنزعات الالحادية في الجامعة التي وجدت عنده أرضا خصبة تنبت فيها وتنمو « •• ولكنه عثر كذلك على نزعات غريبـة وآراء لم تدر له بخلد • عثر على موضة الالحاد والتفسيرات التي يبشر بها علماء النفس والاجتماع للدين والاخلاق والظاهرات الاجتماعية الاخرى ، وسر بهـا سرورا شيطانيا ، وجمع من نخالتها فلسفة خاصة اطمأن بها قلبه •• » ٧٦ .

وهكذا فقد كان للتعرض للحضارة الغربية آثار سلبية عند الشبان الذين لم يكن لهم من النضج والمناعة ما يحصنهم ضد تلك الاثار • ويبدو أن عجـز نظام التعليم وبعض العوامل الاجتماعية الاخرى كانت تضاعف من ذلك الاثر •

ولعل من أهم هذه العوامل الهجرة الى المدينة • فاثنان من أبطال محفوظ من أصل قروي ، وهما محجوب عبد الدائم وحسنين كامل • أما الاول فان فقره جعله يرقب ملذات القاهرة من بعيد ، وجعله بعده عن ضوابط المجتمع القروي يتبنى فلسفة تتناسب مع طموحه وفقره وتطلعه الطبقي ، فتنكر لكل القيـم الدينية والاجتماعية كما رأينا • وأما الثاني فان شعوره بالضياع في القاهرة أقوى : « سيبقى هذا القبر المغمور في العراء رمزا لضياعهم المخجل في هـذه المدينة الكبيرة » ٧٧ • وقد أدى به ضياعه وفقره وطموحه الى أن يتبع طرقا لا أخلاقية في محاولته الارتقاء اجتماعيا ، ولم يردعه ايمانه الديني القلق ، ولا أية مبادىء تلقاها في المدرسة ، ولا ضوابط اجتماعية لم تكن متوفرة في القاهرة

كما في القرى عن أن يتبعها ٠

ويشير هذا الاهتزاز في القيم الناتج عن العوامل السابقة الى أن المجتمع المصري كان يمر في مرحلة انتقالية ٠ وقد رأينا قبلا كيف أن المرأة المصرية بدأت تنال حريتها ، وتتعلم ، وتتوظف مما أدى الى أن يصير الرجال أقل سيطرة في المجتمع ٠ وكيف أن الابناء صاروا أكثر حرية في تقرير مصيرهم ، وأكثر بعدا عن قيم آبائهم وعاداتهم ومعتقداتهم بسبب الثقافة التي حصلوا عليها بنوع خاص ، مما أدى الى ظهور فجوة حضارية بين الاجيال تمثلت أحسن ما تتمثل في عائلة أحمد عبد الجواد في الثلاثيـــة ، حيث نـــرى الاب شديد التمسك بالتقاليد وبالقيود التي يفرضها على أسرته قليل الاهتمام بما عدا نفسه وعائلته، قليل التفكير الذاتي ، يقبل المعتقدات ويسلم بها ٠ ونرى الابناء أكثر تحررا وتسامحا تهمهم شؤون وطنهم ويضحون من أجلها ، كثيري التأمل ومراجعة القيم والمعتقدات ٠ أما الاحفاد فقد تحرروا من جميع القيود العائلية تقريبا والتزموا التزاما كليا بقضايا وطنهم وشعبهم ، وتبنوا قيما جديدة تماما على المجتمـــع المصري ٠ واذا كان الاب يمثل المجتمع التقليدي الذي تخنق فيه الفردية تحت وطأة القيود الخارجية ، والابناء يمثلون المجتمع الانتقالي الذي يوفق بين متطلبات الفردية وقيود الجماعة ، فان الاحفاد يمثلون المجتمع الحديث الذي تنطلق فيه الفردية فلا تتقيد الا بقيود ذاتية داخلية ٠ وهكذا كان لعملية التغريب آثـــار ايجابية أيضا اذ ساعدت على انتقال المجتمع المصري من مجتمع تقليدي الـــولاء الاول فيه للعائلة (الصغيرة والواسعة) والدين ، والسيطرة فيه للرجـــال وللكبار ، الى مجتمع انتقالي يسير على طريق الحداثة والعلمنة ، وتلعـــب فيـــه المؤسسات الاجتماعية والحكومية كالمدارس والاحزاب دورها بجانب العائلة ، ويتقدم الولاء للوطن أو المبدأ على الولاء للعائلة أو الجماعة المحلية أو الدين ، ويعطي المزيد من الحرية للنساء وللابناء ٠

الفرد والمجتمع : الاغتراب الاجتماعي : ٧٨

يعرف حليم بركات الاغتراب بأنه « تجربة نفسية شعورية عند الفـــرد تتصف بعدم الرضى والرفض والاحساس بأن هوة فسيحة عميقة تفصل بـين العالم الواقعي الذي يعيشه والعالم المثالي الذي يصبو اليه » ٠ ويضيف أن الانسان المغترب هو الانسان الذي لا يشعر بالانسجام مع عالمه ولا يتقبل قيمه وأنماط حياته الراهنة السائدة ، ويرفض الاسس والمنطلقات والاتجاهـــات والنشاطات ٠ وانه « بهذا المعنى قد يغترب الانسان عن المجتمع ككل أو عـن مؤسساته كالعائلة والدين والدولة وغيرها » ٧٩ ٠

والاغتراب بهذا المعنى ظاهرة واضحة في قصص محفوظ الواقعية ٠ ذلك أن جميع أبطال هـــذه القصص تقريبا ، والعديـــد من شخصياتها الاخرى يشتركون بالشعور بعدم الرضى عن المجتمع الذي لا يتيح لهم أن يحققـــو

ذواتهم ، وأن يعيشوا حياة حرة كريمة • كما أن بعضهم يرفض القيم السائدة في المجتمع ويضيق بالضغط الذي تمارسه على حريته الفردية بعض مؤسسات ذلك المجتمع •

أ ــ مصادر الاغتراب : يشير بركات الى مصدرين رئيسيين للاغتراب على صعيد المجتمع هما السيطرة المفرطة Over-Control وعكسها ، أي فقدان السيطرة Under-Control ٨٠ • أما السيطرة المفرطة فنلاحظ آثارها في قصص محفوظ متجلية في عجز أبطال تلك القصص عن تغيير الواقع البشع الذي يحيونه والمتمثل في سيطرة طبقة واحدة على مقدرات البلاد والفوارق الطبقية الحادة ، وعجزهم عن تغيير القيم السائدة • كما يعجز بعضهم عن أن يتخلص من سيطرة العائلة (كمال عبد الجواد) • كذلك نرى اثار فقدان السيطرة متجلية في انحلال القيم وعدم تمكنها من السيطرة على سلوك الافراد (محجوب عبد الدائم وحسنين كامل) •

ب ــ نتائج الاغتراب السلوكية : يقول بركات « ان مجالات التصرف الفعلي أمام المغترب يمكن النظر اليها وتحديدها على انها امتداد بين الانسحاب والاشتراك التمردي الثوري • بكلام اخر ، على المغترب القيام بواحد أو بمزيج من ثلاثة أنواع من التصرف : بامكانه الانسحاب من واقعه ، أو الرضوخ اليه ظاهرا والنفور منه ضمنا ، أو التمرد الثوري عليه وتغييره ٨١ • وفي قصص محفوظ نقع على أنواع التصرف الثلاثة هذه •

١ ــ الانسحاب : وهو الحل الذي اختاره كمال عبد الجواد في الثلاثية اذ ابتعد عن الحياة الواقعية ، وانصرف الى ما سماه بحياة الفكر ، وعاش داخل مشاعره الخاصة ممتنعا عن المشاركة الفعلية في تغيير الواقع • كذلك اختار أحمد عاكف في خان الخليلي الانسحاب ، واجترار آلامه ، وادعاء الترفع عن الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية لان أمور الفكر ، في رأيه ، أهم بالنسبة للمثقف•

٢ ــ الرضوخ : اختار كمال عبد الجواد هذا الحل بالنسبة لعلاقتــه بعائلته وبالدين ، اذ ظل يرافق والده الى صلاة الجمعة مراعاة لما سماه بحقوق الابوة واحتراما للناس كما رأينا سابقا ، مع أنه كان يعلم أن ذلك يتنافى مع الكرامة والصدق • كذلك اختار فؤاد الحمزاوي الرضوخ والحذر في انتقاد النظام القائم لانه تمكن من تسلم وظيفة جيدة • ويمكننا أيضا أن نعد تصرف محجوب عبد الدائم وحسنين كامل اللذين اختارا طريق التسلق الطبقي ومهادنة الطبقة العليا ومشاركتها الفساد نوعا من الرضوخ •

٣ ــ التمرد الثوري : اختار هذه الطريق عدد من شخصيات محفوظ مثل علي طه ومأمون رضوان في القاهرة الجديدة ، وأحمد راشد في خان الخليلي ، وأحمد شوكت وعبد المنعم شوكت في الثلاثية • وكان هؤلاء يعملون على تغيير الواقع من خلال الدعوة لمبادىء معينة ، أو الانتماء لاحزاب تعمل على قلب الاوضاع القائمة •

ويلاحظ أن الشخصيات الرئيسية في قصص محفوظ تختار الحلين الاولين أي الرضوخ والاغتراب ، وأن الاغتراب عن المجتمع بمعنى رفض الاوضاع الاجتماعية القائمة تشترك فيه معظم شخصيات محفوظ ، ولكن الاغتراب عن الدين والعائلة يقتصر على بعض فئات المثقفين • ومما يخفف الميل الى الاغتراب عن العائلة شدة الاغتراب عن المجتمع وحاجة المرء الى الانتماء • أما الاغتراب عن الدين فيخفف من الميل اليه كون القيم التي تؤدي الى الاغتراب عنه مقترنة بحضارة غريبة معتدية •

وبعد ، فقد حاولت في هذه الدراسة أن أحدد المشكلات الاجتماعية التي واجهت الطبقة الوسطى المصرية كما عرضها نجيب محفوظ في قصصه الواقعية ، فتبين لي أن المشكلة الاساسية التي كانت تشغل أبطال تلك القصص من الطبقة الوسطى الصغيرة هي مشكلة التحرك الاجتماعي والعوائق الشديدة التي كانت تعترض ذلك التحرك ، وفي مقدمتها استئثار طبقة واحدة بالمناصب وبثروة البلد ، والفوارق الطبقية الحادة • وقد واجه هؤلاء الابطال الذين كان يقلقهم الصعود الى أعلى والخشية من السقوط الى مرتبة أدنى على السلم الاجتماعي تلك العوائق بحلول فردية اقتحامية تسلقية أو هروبية تعويضية • ولكن بعض شخصيات محفوظ الاخرى كانت تحاول أن تجد حلا جذريا للمشكلة عن طريق العمل الحزبي المنظم أو الدعوة لمبادىء معينة سعيا وراء محو الظلم الاجتماعي وتحقيق المساواة • وقد اختلفت مواقف الفريقين من الطبقات الاخرى انطلاقا من اختلافهم في معالجة المشكلة الطبقية ، كما اختلفت مواقفهم من أمور أخرى عديدة كما رأينا •

وبالنسبة للعائلة كوحدة اجتماعية تبين لي أنها كانت لا تزال تلعب دورا مهما في حياة الطبقة الوسطى الصغيرة التي كانت تعاني من مشكلات عديدة ويحتاج أفرادها الى ملاذ عاطفي لمجابهة تلك المشكلات والشعور بالانتماء ، وخاصة أن انتماءهم الطبقي لم يكن يوفر مثل ذلك الشعور فيما يبدو •

ولاحظت أن هنالك تبدلا في القيم ، وفي الادوار العائلية وفي موقف الافراد من الدين ، ومن كثير من المسائل الاخرى مما يعني أن المجتمع كان يمر في مرحلة انتقالية • وربما كانت عملية التغريب العامل الاساسي في ذلك التحول •

وأخيرا وجدت أن العوامل المختلفة داخل المجتمع التي سبقت الاشارة اليها كانت تؤدي الى اغتراب الافراد عن مجتمعهم •

عاطف فضول
(بيروت)

المراجع

١ – HenrY Grayson, The Crisis of the Middle Class (New York : Rinebart and Comp. Incorporation, 1955), P. XI-Introduction.

٢ Elinor Barber, The Bourgeoisie in 18th C. France (Princeton : Princeton University Press, 1955), P. 98.

٣ نجيب محفوظ ، **القاهرة الجديدة** (القاهرة : دار مصر للطباعة ، لات) ، ص ٤٦ .

٤ نجيب محفوظ ، **السكرية** (القاهرة : دار مصر للطباعة ، لات) ص ١١٨ .

٥ نجيب محفوظ ، **بداية ونهاية** (القاهرة : دار مصر للطباعة ، لات) ، ص ٣٠٦ .

٦ هنالك مجال واسع للمقارنة بين محجوب وأوجين دي رستيناك بطـــل قصة **الاب غوريــو** لبلزاك . فكلاهما فقيران يدرسان في المدينة بعيدا عن عائلتيهما اللتين تعلقان عليهما امالا كبيرة . وكلاهما يتطلعان الى الطبقة العليا . وفي حين كانت واسطة محجوب للتقرب من تلك الطبقة سالم الاخشيدي ابن بلده ، كانت واسطة أوجين عمته السيدة دي مارسياك . وكلاهما يحضران حفلات ارستقراطية ويتمنيان لو كانا يعيشان حياة أفضل ويسعيان الى الوصول بأي ثمن ، ويتلقيان نصائح بطرح المبادىء جانبا في مجتمعين متشابهين من حيث اهتزاز القيم فيهما .

٧ القاهرة الجديدة ، ص ٣٠ ــ ٣١ .

٨ نفسه ، ص ٣٧ .

٩ نفسه ، ص ٤١ .

١٠ القاهرة الجديدة ، ص ٣١ .

١١ نفسه ، ص ١١١ .

١٢ نفسه ، ص ٩٥ .

١٣ خان الخليلي ، ص ١٤ و ١٥ .

١٤ نفسه ، ص ٤٢ .

١٥ نفسه ، ص ٢١ .

١٦ نفسه ، ص ٣٨ .

١٧ نفسه ، ص ٩٩ ــ ١٠٠ .

١٨ نفسه ، ص ١٤٦ .

١٩ بداية ونهاية ، ص ١٤

٢٠ نفســه .

٢١ نفسه ، ص ٢٤ .

٢٢ نفسه ، ص ١٨١ .

٢٣ نفسه ، ص ٣٠ .

٢٤ نفسه ، ص ٢٥٧ .

٢٥ نفسه ، ص ٣٣٤ .

٢٦ نفسه ، ص ٢٤٥ .

٢٧ نفسه ، ص ٣٨١ .

٢٨ قصر الشوق ، ص ٥٥ .

٢٩ نفسه ، ص ٣٥٠ .

٣٠ السكرية ، ص ٢٩ .

٣١ نفسه ، ص ٣٢١ .

٣٢ نفسه ، ص ٣٣٧ ٠
٣٣ نفسه ، ص ١٢٢ ٠
٣٤ نفسه ، ص ٢٥٦ ٠
٣٥ أحمد عباس صالح ، « رد على نجيب محفوظ » ، **الكاتب** ، عدد ٦٠ ، مارس ، ١٩٦٦ ، ص ٩٨ ٠
٣٦ خان الخليلي ، ص ٦٧ ٠
٣٧ بداية ونهاية ، ص ١٩٩ ٠
٣٨ نفسه ، ص ٣٠٢ ٠
٣٩ السكرية ، ص ٣٩٢ ٠
٤٠ نجيب محفوظ ، « ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية » ، **الكاتب** ، عدد ٦٠ ، مارس ١٩٦٦ ، ص ٩٢ ٠
٤١ القاهرة الجديدة ، ص ١٦١ ٠
٤٢ بين القصرين ، ص ٣٧٦ ٠
٤٣ خان الخليلي ، ص ٤٦ ٠
٤٥ نفسه ، ص ٥٨ ٠
٤٦ بداية ونهاية ، ص ١٣ ٠
٤٧ Barber, The Bourgeoisie in 18th C. France, PP. 75 - 80.
٤٨ بين القصرين ، ص ٩ ٠
٤٩ بين القصرين ، ص ٣٢٦ ـ ٣٣٧ ٠
٥٠ نفسه ، ص ١٧٧ ٠
٥١ قصر الشوق ، ص ١٢٥ ٠
٥٢ نفسه ، ص ٤١٣ ٠
٥٣ نفسه ، ص ٤٥٤ ٠
٥٤ زقاق المدق ، ص ٥٨ ٠
٥٥ القاهرة الجديدة ، ص ١١٢ ٠
٥٦ نفسه ، ص ١٦٥ ٠
٥٧ بداية ونهاية ، ص ١٧٤ ٠ ص ١٤٤ ـ قارن بـ « غوريو » في قصة **الاب غوريو لبلزاك**
٥٨ نفسه ، ص ٢٢٢ ٠
٥٩ زقاق المدق ، ص ١٢٠ ٠
٦٠ نفسه ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ٠
٦١ خان الخليلي ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ٠
٦٢ بداية ونهاية ، ص ٩٩ ٠
٦٣ القاهرة الجديدة ، ص ٨ ٠
٦٤ نفسه ، ص ١٨ و ١٩ ٠
٦٥ خان الخليلي ، ص ١٣٩ ٠
٦٦ القاهرة الجديدة ، ص ٧ ٠
٦٧ نفسه ، ص ٦٤ ٠

٦٨ خان الخليلي ، ص ٢٥٦ .
٦٩ نفسه ، ص ٤٨ .
٧٠ القاهرة الجديدة ، ص ٢٥ .
٧١ بين القصرين ، ص ٣٨٧ ــ ٣٨٨ .
٧٢ قصر الشوق ، ص ٣٧٥ .
٧٣ السكرية ، ص ١٧ ــ ١٨ .
٧٤ نفسه ، ص ١٢٦ .
٧٥ القاهرة الجديدة ، ص ٢٥ ــ ٢٦ .
٧٦ نفسه ، ص ٢٦ .
٧٧ بداية ونهاية ، ص ١٦ .
٧٨ اعتمدت في هذا القسم على مقالة لحليم بركات بعنوان « الاغتراب والثورة في الحياة العربية » نشرت في مجلة **مواقف** ، تموز ــ اب ، ١٩٦٩ ، ص ١٨ ــ ٤٤ .
٧٩ بركات ، « الاغتراب والثورة في الحياة العربية » ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .
٨٠ نفسه ، ص ٢٩ .
٨١ نفسه ، ص ٣٣ .

جمعة اللامي ، قاسم حول

الجمهور وتجربة المسرح الثوري

مع انهيار الاساليب التقليدية في العمل السياسي بدأت تنحسر كذلك الاشكال المتوارثة في المسرح * منذ أن انهار الجدار الرابع في زمن برخت . ويوما بعد يوم صار المسرح أكثر انغمارا في عذابات الناس الذين يرزحون تحت وطأة التعسف والاستبداد . ولعل انبثاق الثورات المسلحة في العالم الثالث قد بدأ يستنفر عقول المفكرين ويجلب انتباههم الى نقاء هذا التمرد الواعي ، الواضح، الذي يضفي الثائر من خلاله معنى على حياته ويحقق مجابهة حقيقية ازاء المخاوف التي تمتد الى عوالمه الذاتية والعامة .

وعبر تجربة بسيطة قمنا بها أمام جماهير أحد معسكرات اللجوء وضحت أمامنا جملة من الحقائق المسرحية ، حقائق كانت غامضة نوعا ما بالنسبة الى علاقاتنا الحسية بالفن المسرحي الذي يلتحم بالجماهير فكرا وعاطفة من ناحية وبالتواصل مع هذه الجماهير عبر اللغة والحركة والمكان .

من أين يمكننا أن نبدأ .. وكيف ؟ مسرح من دون مسرحية ودون منصة؟

قد تبدو هذه التجربة مستحيلة ومتخيلة . فعليك وأنت مندفع حقا لخوض هذه التجربة الغاء النزف الذي يرقص في عوالمك وسط جدران غرفتك برفقة سيكارة وقدح من القهوة وزمن غير محدود يفيض بالتجربة واختزانها ثم نضجها ومعايشتها بكل التفاصيل والتلذذ بها في أحلام اليقظة والنوم . ولكن ما ان تخترق هذه العوالم وتكون ضمن التجربة ثم تكون جزءا منها حتى تتبلور في ذهنك مسائل جديدة توحي بامكانات جديدة .

ان تجربة كتابة مسرحية أبطالها مقاتلون مثلا تصبح بالتأكيد مثل بندقية

---

* كتبت هذه الكلمة استناداً الى التجربة المسرحية « طفل بلا عنوان » التي قدمتها فرقة لفنون الشعبية الفلسطينية التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

غير صالحة للاستعمال ، اذا كان كاتب المسرحية لا يعرف استعمال السلاح ولم ير في حياته معسكرا من معسكرات المقاتلين ورجال المقاومة ، وهكذا وجدنا أنفسنا غير جديرين بخلق نماذج من الشخصيات تتحدث عن القتال وعن المقاومة ونحن بصدد تقديم مسرحية في مخيمات اللجوء • فأخذنا موضوعا بسيطا وجدانيا عن أحاسيس طفل تشغله تساؤلات « من هو الملك ، كيف يعيش الملك ، هل يتحدث باللغة نفسها التي نتحدث بها ••• » ومن خلال تساؤلات هذا الطفل وعبر أقصوصة بسيطة تمكنا من عرض نماذج من الشخصيات عبرت بهذا الشكل أو ذاك عن أحاسيس الناس الذين أردنا التحدث معهم من خلال المسرحية • ان تجربة من هذا النوع أخضعناها لمشاركة جماعية كتابة ومناقشة• فلقد أسهم في كتابتها ثلاثة من الرفاق تدارسوا المشاهد والشخوص أولا بأول، وتم الاتفاق في النهاية على كل ما ورد فيها باستثناء العنوان الذي اختاره شاب صغير من المعسكر بعد أن استمع الى القراءة الاولى للمسرحية أمام الممثلين حيث انتقى الاسم (طفل بلا عنوان) من المقطع التالي •

الرجل ــ وين عنوانك يا زغير ؟

الطفل ــ أنا مليش عنوان •

كان لاولئك الشبان ممارسات عفوية في التمثيل وكان علينا أن نوجد شكلا من أشكال العمل يحقق حصيلة مؤثرة في جمهور المشاهدين من خلال انفعالات حقيقية للممثلين الهواة الذين يعتبرون التمثيل شكلا ظاهريا من الانفعالات والايماءات ، فباشرنا العمل منطلقين في البداية من رغبة حقيقية في جعل هذه البذرة النقية تدرك بأن للحركة على المسرح دوافع ومسببات وهي لا يمكن أن تكون حركة عفوية انما هي حركات مبررة وتشكل مع بعضها أشكالا جميلة ، وأن أي تفريط في الحركة والالتفاتة انما يترك تأثيرا سلبيا على المشاهد، وهي اسهام في تقطيع الخيوط الوهمية بين نظره والكتل والمناظر والافراد والضوء الموجودة على خشبة المسرح • كنا نريد من هذا كله توفير الممثل الجديد الذي يحقق ، باتقانه لدوره ، الهدف الذي كنا نتوخاه من عملنا هذا ، لا سيما أن المجموعة التي باشرنا العمل معها كانت جادة ومخلصة ومتشوقة للعمل بشكل مفرح وهذا ما كنا نتوق اليه في هذه التجربة • وخلال التمرينات المسرحية اتفقنا على أسس للعمل وكنا نسعى دائما الى جعل الاصدقاء يوجدون بأنفسهم أفضل الوسائل التي تؤدي الى النتيجة • أشعرناهم بأنهم وحدهم القادرون على تطوير العمل وتناميه وان لا وجود لمخرج أو كاتب أو مدير مسرح ، وما وجود هذه التسميات سوى مجموعة مشاهدين يشتركون مع الممثلين ضمن عمل منظم في تصحيح الخطأ والتوصل الى ما هو صحيح ومؤثر • وكانت تبرز خلال التمرينات بعض التساؤلات نفسرها فتجد ارتياحا كاملا واندفاعا جديدا من الممثلين • (سأل أحد الممثلين مرة •• لماذا نجعل الملك وهو منفعل في حديثه يدور حوالي الكراسي ، فأخبرناه بأن هذا الخط الملتوي انما هو تعبير عن التوائه في الحياة وعدم استقامته ووضع موقفه) •

وكان في اعتبارنا كذلك مسألة أخرى : ازاء الفصل الواقع حاليا بين المسرح والشعب ، أدركنا أن ثمة مخرجا لهذا الفصل فيما لو عمدنا الى دمج المسرح بالمشاهدين ، وهكذا انتقلنا الى بعد اخر ، استطعنا من خلاله تحطيم الخطوط الوهمية بين المسرح والجمهور فكان الممثلون يتواجدون على المسرح ، لحظات كان الجمهور يدرك تماما ان هذا الذي يحدث أمامه لم يكن الا عرضا تمثيليا ، ولكنه مع ذلك لم يستطع حبس دموع بعض النساء وصراخ الاطفال الصغار الذين اندفعوا الى خشبة المسرح وهم يشاهدون الطفل يفجر الانظمة العربية ويحمل على نقالة تطوف به بين الجمهور فيما كانت احدى عناصرنا تؤدي نشيدا فلسطينيا يمكن أن يكون القطع الحاسم لاعتبارات العاطفة الجماهيرية المعتمدة على الاحساس الدرامي بهذا المشهد ٠

ان كتابة هذه المسرحية ، وكذلك اخراجها ، ومن ثم تنفيذها ، أظهرت لنا ان جمهورا بسيطا يمكن أن يفهم عملا رمزيا فيما لو كان بامكان المسرح أن يقدم اليه مادة من صلب واقعه مهما كان الشكل أو التكتيك المسرحي المطروح ٠ كما اكتشفنا قدرة العنصر الانساني في الاندفاع بدوره التمثيلي الذي يتلاءم مع مأساته الشخصية اذا ما أعطيناه حرية الحركة والمبادرة المدروسة في الخروج على النص اذا ما وجد ذلك ضروريا أثناء التمرينات لتثبت بعد ذلك في النص وعلى المسرح ٠

ان امكانية بعث تقاليد مسرحية ثورية وتنمية تلك التقاليد وتأصيلها ، موجودة في هذا الشعب ، اذا كنا حقا نهدف في عملنا الى تأكيد اصالة هذا الشعب وقدراته ، دون اللعب عليه ، أو تقديم فذلكات كلامية تخدر وعيه ٠ ان تجربتنا أثبتت أن ذوق الجماهير الشعبية الكادحة جيد وممتاز ، اذا نحن امتلكنا قدرة على اختيار لغة بسيطة لا تفهمهم واقعهم فحسب ، وانما تدفع كذلك هذا الواقع الى أمام باتجاه جعله مكتشفا من قبل المشاهد لتحطيمه أولا والبحث عن البديل الذي تكون حسنته الاساسية قدرته على تقديم كشوفات أفضل وابتعاده عن الجمود وعن الجمالية المنغلقة على ذاتها ٠

على أن هذا لا يعني بأية حال تقديم أعمال تعليمية مجسدة من خلال نص جامد أو حركات انفعال عاطفي مؤقت ، فنحن ضد هذا على امتداد الخطوط كلها، ونستطيع القول ان ما نريده من هذا كله هو وضع المشاهد أمام اختيارات ترتبط بالاتي : ان الرموز التي احتواها الديكور لم تكن ذات أفق مرحلي * بقدر ما كانت تهدف الى ربط الوعي الذاتي للمشاهد بوعي الثورة ، ولهذا فان تخطيط الديكور تجاوز الاشارة الى هذا الواقع الشخصي لذلك الخائن أو الثائر ، بقدر ما طرح أن الفاشية أو الميل الى القتل هما ظاهرة محسوسة يمكن ملاحظتها في أنحاء عديدة من عالمنا ٠٠ وبهذا توصلنا الى تعميم رؤية جماعية بصدد كشف العدو الاساسي والاول للجماهير ٠

---

* نفذت الديكور منى السعودي ٠

ومن المنطلق نفسه نستطيع القول ان البطولة لم تكن هي الفعل الذي قام به الطفل بتفجير الانظمة وبؤر الفاشية ، بل ان البطولة كانت هي « **الفعل**» الانساني الذي جسده الطفل من خلال بحثه والتقاءاته مع شرائح اجتماعية ساعدت بهذا الشكل أو ذاك على وضعه أمام قدرة الكشف الاخيرة : أمام العنف لا يجدي الا العنف ، وسيكون العنف أكثر شرفا وجدارة لو اتخذ طابع العمل الجماعي المتبلور من خلال رؤية « **شعبية** » لمغزى ذلك العنف ٠

وهنا نستطيع القول بكل ثقة : اننا في كل ما طرحناه كنا نسير في خطوط عامة مع الاهداف التي تطرحها الثورة العالمية ، ومع أكثر الاشكال والاساليب ثورية والمتبناة من قبل الثورة العالمية حاليا ، وبأننا استطعنا أن نخلق نموذجا فلسطينيا ، أجاد طرح المشكلة الثورية العالمية الراهنة ٠

أين يمكن دفع هذه التجربة ، وهل ان الزمن الحالي قادر على تطويرها ؟ ثمة اجابة واحدة يمكنها أن تضع أمامنا خطا واحدا ولكنه عريض وسمح في الوقت نفسه : ان لغة الناس رائعة ، وقادرة على النفاذ ، وتستطيع أن تؤكد قيم التجاوز والاختيار الحر ، وعن طريق تلقيح هذه اللغة الجماهيرية البسيطة بالمحتوى العام لعصرنا ، فان امكانات تصعيد قدرة هذه اللغة على التشخيص والطرح الثوريين ممكنة وقابلة لتأكيد الافعال ٠ ان كاتبا مسرحيا جديدا يولد الان في رطوبة اجواء المخيمات ، وان مسرحا جديدا ينمو الان في الزخم الذي يطرحه الكفاح المسلح والعنف الثوري الذي يكون القاسم المشترك الاعظم لجماهيرنا ، فاذا ما استطاع الكاتب المسرحي الاسترشاد بهذه الموضوعة ، واذا ما مكن نفسه من الالتحام بالثورة كبعد فلسفي ، فانه يستطيع حتما الانتقال بالمسرح من دور العرض السلبي الى دور العرض الايجابي الذي يتخذ طابع اشراك الجمهور في حسم كل التساؤلات والتأكيد على الاجابات التي تغني الوعي الانساني الثوري ، وتقدم له طرقا واسعة غير قابلة للانقطاع ، تضعه في بؤرة الفعل الثوري وهو يمارس دوره في الثورة والتغيير لخلق عناصر انسانية قادرة على الابداع في هذا العمل والتفوق في أساليب طرحه ٠ وهذه هي اللبنة الاولى في تحقيق انسان الثورة القادم ٠

جمعة اللامي (كاتب) ، قاسم حول (مخرج)

ادوار امين البستاني

مات الانسان السابق

I

لا أفكر **أثناء الكتابة** في جمهوري * ، ولكنني أعرف في ساعات الصحو الذهني الى من أتوجه • فالذين أخاطبهم هم جميع القوى المؤهلة للتغيير ، وجميع القوى التي يمكن تأهيلها للتغيير ، هي الامكانات اللانهائية التي ترقد في الهدوء، وتحتاج الى ناقوس الصباح الذي يكتشف في مسامعها نغم اليقظة لتفتح أجفانها في بحيرة الرقاد ، والرتابة ، والشمس اليومية •

أنا لم اختر هذا الجمهور • هو الذي اختارني • صمته المزمن هو الذي يثيرني • قبوله الدائم يثير غضبي • لا مبالاتـــه بالاشياء والاحداث تسحقني وتفتتني في كلمات ذات الوان متعددة : منها الضحك اللؤلؤي ، ومنها الغضب الاسود ، ومنها النشوة الخمرية اللون • ومنها اليأس الرمادي • ومنها مزيج اخر يبدو باهتا فلا يراه أحد غيري ، فأطيل النظر فيه وأضحك وأضحك طويلا وحــدي •

أنا لا أكتب لغير هذا الجمهور لان الاخرين لا يثيرون غضبي ، ولا أرى في

---

* « سمك السلور » (يخرجها يعقوب شدراوي) هي المسرحية الثانية لادوار أمين البستاني بعد « سمسم » • وهو هنا يجيب عن ثلاثة أسئلة طرحتها عليه « مواقف » هي التالية :

١ ـ حين تكتب هل تفكر في جمهور ؟ من هو ؟ ولماذا تختاره ؟ ولماذا لم تكتب لغيره ، كذلك ؟

٢ ـ ماذا تريد أن تقدم لهذا الجمهور ؟ هل تريد أن **تغيره** ، أم تريد أن **تخبره** وحسب بما يتفجر في داخلك ؟ ان كان الامر الاول ، فكيف **تفهم هذا التغيير** ؟ وان كان الثاني فكيف تفسر موقفك ؟

٣ ـ لكي يغير الفن ، على افتراض قدرته ، لا بد أن يكون هو نفسه قد **تغير** • **ماذا** غيرت **وكيف** ، في وسيلتك الفنية التغيرية : المسرح ؟

سلوكهم ما هو شاذ · القوي المنتشي بقوته لا يدهشني · والجلاد المأخوذ بعنفوان السوط لا يهمني · انه منسجم مع نفسه ويعرف ماذا يريد ، وماذا ينبغي أن يريد · وأنا كذلك لا أهمه · اني تفصيل في عالمه يحلو له أحيانا النظر اليه ، كزينة في اطار المذبحة الهادئة الجميلة ·

II

اريد أن أقدم لهذا الجمهور حيرتي به ، ودهشتي منه ، وعتبي الرقيق عليه · الواقع اني أريد أن **أخبره** · أخبره وحسب · وأي شيء أعظم من أن تخبر انسانا نائما ان اليقظة شيء آخر · ان الاخبار الحقيقي هو التغيير الاعمق· لم يكن سقراط هازلا ولا غبيا عندما قال : « من يعرف الخير يفعله » · ونحن ان نعرف اليقظة نستيقظ · لو كان في قدرتي أن أشرح كيف أفهم هذا التغيير · لو كان في قدرتي أن أختصر حركة التاريخ الاتي بكلمات مضيئة سابقة ، لتركت الكتابة وأعلنت نفسي نبيا ، أو قائدا ، أو في أتعس الاحتمالات زعيما سياسيا ولكنني لا أعرف · وأنا أكتب من أجل أن أعرف · واستمع الى ملاحظات الناس على ما أكتب لتزداد الصورة في ذهني وضوحا · فهل أنا مخطىء ؟

التغيير لا يحتاج الى أن يفهم في صور ضوئية سابقة ، وتصاميم معدة سلفا · التغيير يأتي كالعواصف بلا خرائط · انه النهر الذي لا تخطط حركة مائه · كل ما أستطيع أن أقوله عن أسراره ، انه ينبع من حافة اليأس ، ويتفجر بغير موعد · وينتهي حيث لم يرد أن يبدأ · فكيف تريدني من البداية أن أرسم مفهوما جاهزا له · ان هذا يفوق قدرتي ·

III

لا شك ان الفن قادر على التغيير ، ولكنه غير قادر على فهم التغيير سلفا · وهذا عكس السائد في أذهان الناس · انهم يتصورون الفنان رجلا رؤيويا · يرى الاشياء قبل حصولها ، والعواصف قبل قدومها · لا · الفنان قوة فاعلة · ضاغطة · مفجرة (وأحيانا متفجرة) · رأس حربة وحد سيف · رقبة ذبيح · جثة معفنة على قارعة الطريق · يجرح وينجرح ويشمئز ويثير الاشمئزاز · ولكنه لا يرى بوضوح · والذين يدعون غير ذلك عليهم أن يكفوا منذ الان عن القلق ويعلنوا أنفسهم أنبياء ·

ان السؤال الثالث يمارس علي ارهابا شديدا · يقرر مجانا ان الفن ــ لكي يغير ــ لا بد أن يكون هو نفسه قد تغير · اذا كان **قد** تغير ، فمعنى ذلك

انه أسلم نفسه لالة التغيير مرة واحدة ثم استراح . لا . لكي يغير الفن ، لا بد أن يكون في حالة تغير دائمة ، وبسرعة ، يجتاز المحطات ولا يتوقف عندها . يصعب تحديد مسيرته الا بعد أن يتوقف . أنا أرفض أن أتوقف ، ولو لحظة واحدة لاقوم بعملية حساب ، وجردة احصاء ، لما تغير ، وكيف تغير .

ليست لي وسيلة فنية جاهزة ، تتغير عند اللزوم ، ثم تستفيد من التجربة، لتبدل ازياءها . كل ما أستطيع أن أقوله : ان قلبي ينبض ، وأعصابي تتحرك ، ولا أزال أستنشق الريح ، كل ثانية . ففي كل ثانية ريح جديدة . اذا قلت لك ماذا غيرت وكيف غيرت ، سأندم غدا صباحا على ما قلته . اني أقوم باستمرار بعملية خيانة ذاتية لكي أصل الى ما أريده وهو مستحيل .

اخترت المسرح لانه يخونني على الدوام ، ويساعدني على خيانة نفسي حتى لا أتحول الى بحيرة آسنة . المخرج والممثل والقاعة والضوء والجمهور الغارق في العتم ، كلهم يهدني ويجعلني نهرا . وأضحك أخيرا لانني أكتشف أني كنت فاعلا بقدر ما كنت منفعلا . وان العيون التي تأكلني في الظلام ، ستلفظني على الخشبة ، تحت الضوء ، مرة أخرى انسانا آخر ، يحلـــو له أن يعلن : « ان الانسان السابق قد مات » .

ادوار امين البستاني

«لتمت دسدمونا» : ومسرح المستقبل ...

فوجئت فيما أشاهد المسرحية • واستمرت المفاجأة ، بعد نهاية المشاهدة • خيل الي أن ثمة شبكة تحيط بي ، شبكة دافئة باردة ، مخيفة جذابة ، غامضة واضحة :

١ ــ **تمتزج فيها الازمنة** ، فليس الماضي وأسماؤه غير الحاضر وأسمائه وغير ما قد يخبىء هذا الذي نسميه مستقبلا ولا يستقبلنا ، أو لا نستقبله •

٢ ــ **وتمتزج فيها المشكلات** ، فتحسب أن القديم زال لكنك ما ان تلتفت حتى تجد أنه يحاصرك من جميع الانحاء وتظن أن ثمة تصنيفا لهذه المشكلات ــ هذه مصيرية وهذه تافهة ، لكن منذ أن تنتبه تكتشف أن الخيط الذي يفصل بين المصيري والتافه لا يكاد يبين • وربما لبس التافه جلد المصيري ، وسار المصيري بخطوات التافه •

٣ ــ **وتمتزج فيها الشخصيات** : كل واحد نفسه والاخر ، وكل واحد غير نفسه وغير الاخر ، وكل واحد مسؤول عن كل شيء وليس مسؤولا عن أي شيء ، وكل واحد ينفي الاخر لحظة يظن أنه يثبت نفسه ، أو ينفي نفسه لحظة يظن أنه يثبتها • وفيها يتفتت هذا الذي نسميه العالم الصلب • وما يكون الموضوع في شبكة كهذه ؟ انه البعد عن كل موضوع • انه المزيد من الغوص في الشبكة • انه البحث أبدا ••

وقلت : هذه بداية المسرح الاخر ، ذي المشاهد المزدوجة ، بل الكثيرة المتواقتة ــ لكن التي يجهل بعضها البعض الاخر أو ينفي بعضها البعض الاخر ، لحظة يتجاوران ، ويتداخلان ، ويتلاحمان ، ويتحركان في صحن واحد • ولحظة لا « **تمثل** » هذه المشاهد شيئا : لا تقلد ، ولا تنسخ ــ لكنها « **تمثل** » في الوقت ذاته أشياء كثيرة : اذ العالم فيها يتحرك • فثمة أقنعة تتكلم ، وأجساد ترقص وتصرخ ، وسواعد تهدد وتومىء •

وقلت : هذه مسرحية تندرج ، شأن « اعرب ما يلي » ليعقوب شدراوي في سياق البحث الفني العربي الجديد ، وبخاصة الشعري ، من أجل تأسيس فن المستقبل ، والتـذوق والتقييم الجديدين ، وهي لذلك ، تطرح السؤال المسرحي الاول : متى ينتهي مسرح **تمثيل الاصل ؟** مسرح الامانة ، التقليد ، المشابهة ، الحكاية ؟

•• من أجل أن يبدأ المسرح •

ادونيس

في الصفحات التالية نحيي خالقي هذه المسرحية « لتمت دسدمونا » ، فنقدمهم الى قراء « مواقف » ، بأصواتهم •

١ ــ المسرحية : المضمون والاطار الفني

I

في كواليس أحد المسارح وبين أثاث مسرحيات قديمة ، تعيش فرقـة ممثلين ، مؤلفة من ستة رجال وامرأة ، وبعض عمال المسرح • هذه الفرقـة تتخبط في فشلها وجهلها وحقدها • وتتعذب • وفي الوقت نفسه تتـوق الى تغيير ، الى عودة ، الى نجاح ، الى بحث عن مواضيع مسرحية • ولهذه الغايـة تتعاقد مع ممثل غريب ، وخلال العرض يعهدون الى هذا الممثل بأدوار مسرحية كسرة ، وكلما وصل الى ذروة المأساة في الدور الذي عهد اليه ، تركته الفرقة وحيدا في مأساته •

ويتوقف العرض • ويبحثون عن موضوع جديد •

منذ دخول الممثل الغريب الى المسرح ، نلاحظ ان شيئا ما يشده الى التعاون مع هذه الفرقة ، شيئا يشبه قدره ، ونعرف من حين دخوله أن لديه دورا يريد أن يلعبه • لكن الفرقة تمنعه فارضة عليه الدور الذي تريد •

وتتوالى أحداث العرض • وفي النهاية يفرض « الممثل الغريب » دوره على الفرقة ، دور من جاء يبني مدينة عظيمة : « أهلها لا يعرفون الخوف وبيوتها بلا أبواب ولا حواجز ••• »

II

لا أدعي أن هناك مضمونا واضحا ، مفسرا ومبشرا ــ وأنا ضد المسرح الجرائدي التبشيري ، المباشر ــ الا ان المسرحية وضعت في حالة كابوس يعيشه كل واحد منا •

في المسرحية ، دعوة صريحة ــ وان لم تكن مباشرة ــ ، ضد العنـف ، واللامبالاة • ضد الدجل والجهل • ضد الحقد الذي يخنق المجتمعات • ضـد الانعزالية الانسانية • ضد أن يأتي من يجسم الخلاص ، فيذهب ضحية قوافل من بشر لا رأس لهم ولا قلب ، تتعذب ، تتحرك كالرمال في عاصفة ، تبحث عن خلاصها ، وكلما جاء من سيدلها الى ذلك الخلاص مشت عليه ، ومن جديد عادت تبحث عن خلاص جديد •

ستظل المجتمعات البشرية تبحث عن مخلص تستهلكه مثلما تستهلك الماء والطعام طالما لن يكون في كل فرد من « القوافل » شيء من ذلك الرجل المنقذ ، شيء من خلاص ، حيث في النفس الواحدة تنتصر الضحية على جلادها •

ان التجربة الفنية التي قمنا بها في قسم التمثيل التابع لمعهد الفنـون ،

أساتذة وطلابا ، وأخص بالذكر طلاب السنة الثانية للعام الدراسي الحالي ، قد ساعدت ــ بالنسبة لي على الاقل ــ على تحديد بعض مقومات العمل الفني الذي نتوق اليه ٠

المسرحية ــ العرض ، تقدم بأطار يرتكز أولا على محاولة ثقة بالعمل الذي نقوم به ، الثقة التي تخلق الهوية ٠ لا « أنظمة منزلة » في الفن ، فحالة الخلق الفني تصنع أنظمتها وتقنيتها بنفسها ولا « خطأ فني » في الفن ، ذلك ان « الخطأ الفني » يصبح خطأ عندما يرفضه صاحبه : الفنان الذي يرفض الحادث الفني على خشبة المسرح يرفض هويته كانسان وكفنان متصل بواقعه ٠

في العرض المسرحي لا وجود « لمؤلف مسرحي » ٠ المخرج الذي يقدم عرضا مسرحيا هو مؤلف مسرحي نصه : صوت (كل الاصوات الصادرة عن انسان أو شيء) وصمت وحركة ، عناصر تتجانس فيما بينها للتجسد في ذلك الانسان الذي هو العرض المسرحي نفسه ، ونتيجته : الممثل « المؤلف المسرحي » الذي ليس له علاقة بهذه العناصر هو « كاتب » فقط ٠

في « لتمت دسدمونا » محاولة قد تكون قريبة من « الجديد المسرحي » وهي بأن تركت حرية « الشعور النفسي » للممثل ، وبذلك يمكنه أن يفجر على الخشبة كل حالاته بحرية تساعد على الخلق الجماعي ٠

الممثل ليس عبدا لنص مسرحي ولا لمخرج ٠

سوف نشاهد خلال العرض ممثلين ينطلقون من المسرح الى الحياة عوضا ان يأتوا بقطعة من الحياة الى خشبة ضيقة الحدود ، ممثلين يحاولون الغاء « الجمهور المتفرج فقط » وجعل الذي يجلس في صالة خلال العرض فنانا يشترك في خلق المناخ ، وانسانا يشترك في العطاء ويقول كلمته ، في محاولة مشتركة ، ما بين ناس الخشبة وناس الصالة ، للبحث عن خلاص ٠

٢ ــ تحطيم الاقنعة

كنا لا نتعدى العشرة عندما بدأنا بكل هوس في هذه النهضة المسرحية الحديثة التي يعرفها لبنان ٠ كان ذلك منذ حوالى عشر سنوات ٠ وكنت بين الذين أكملوا الطريق من هؤلاء العشرة ، ممن رفضوا خلال تلك الفترة مغريات الاخراج ، ذلك اني أعتبر ــ وما زلت ــ ان « الممثل » هو أهم ما يحتاج اليه مسرحنا في الوقت الحاضر ، وكان علي أن أنمي في كل امكانات الممثل ٠٠ ويعرف الذين عملت معهم انني خلال قيامي بادوار « الممثل » شاركت الى حد ما بالاخراج والاقتباس ٠٠ ومرت السنوات العشر واذ بهذا البلد ، حيث يضيع كل شيء وحيث « لا يحترق في الدست غير العظام » يقيم أصناما للفن كالاصنام التي يقيمها في جميع المرافق ، أصناما غريبة عن الفن ، ويفرض علينا أن نعبدها ، أن نخاف منها ، أن نأخذ منها اشارة المرور ٠ في هذه الحالة تولد

في شعور القرف ثم الرفض ثم التحدي • وفي عملي الاول الكامل « لتمت دسدمونا » صرخة صادقة قلتها غير آبه بالنتيجة ، لاسكات دجالي الفن ، ودجالي الثورة في الفن ، ولاحلال الصرخة في مقام الكلام حيث الكلام بوفرة « جراد حرب الاربتعش » • قلائل من زملائي ورفاقي المسرحيين أكملوا عملهم باقتناع ومحبة ضاربين عرض الحائط « مغريات فن آخر زمان » أذكر منهم ملتقى ، جلال خوري ، أبو دبس ، شكيب خوري ••

اذن وسط هذه العوامل النفسية وفي هذا المناخ قلت شيئا عفويا فكان : « لتمت دسدمونا » وفي الكتيب ـ البرنامج الذي وزعناه خلال عرض المسرحية والذي قرأه عدد لا يتعدى عدد أعضاء الفرقة ، قلت كلاما منطقيا مفسرا ما ورد في « لتمت دسدمونا » ، كلاما منطقيا قلته ثم استحيت منه لانني ضد المنطق في الفن وضد تفسير الفن ومع هذا فأنا مستعد أن أفسر أي حركة أو صمت أو كلمة وردت في « لتمت دسدمونا » •

وبدأنا التمارين ، وجئت بالنص (النص المسرحي اعتبره ثلث العرض المسرحي الذي هو صوت وحركة وصمت) الذي هو صوت العرض المسرحي ، وكان علي أن أنجز بواسطة الممثلين الثلثين الباقيين : الحركة ، والصمت • حملت أوراقي وفيها كلام ورؤيا وليس فيها اخراج ولا تفاصيل ومع بدء التمارين بدأ يتضح كل شيء (الممثلون يشهدون على ذلك • أحيانا كنت أخرج مشهدا وفي اليوم الثاني اذا صدف ونسيه الممثلون ونسيته أنا كنت أعود وأخرجه من جديد وبطريقة جديدة يخلقها مناخ العمل ونفسية الممثلين ونفسيتي أيضا •) حورت كثيرا في كلام النص وحركات الممثلين وفقا لامكانات الممثل المعنوية والجسدية • أحببت الممثلين الذين عملت معهم ، أحسستهم جزءا لا يتجزأ من « لتمت دسدمونا » وتمنيت لو كان الجمهور معجبا بهم مثلما كنت معهم •

قال لنا النقاد والجمهور القليل الذي شاهد المسرحية ان « لتمت دسدمونا » هي أكبر عمل مسرحي عرفه لبنان ، ومع هذا لم نقدر أن ندفع أجرة المسرح •• يلزمنا شهران كي ندرس ونكتشف السبب •• كنت أخرج كل ليلة من المسرح حزينا حتى البكاء ـ وهذا شعور كل مسرحي ذلك ان الفن المسرحي فن جاحد يزول مع اسدال الستار ـ وكنت اتساءل لو يأتينا كل ليلة شخص واحد من المقاهي حيث تقدم المازة ومن الملاهي ومن السينما لكان المسرح بألف خير •• صدقوني بألف خير ••

الآن وقد أسدلنا الستار على « لتمت دسدمونا » ، الستار البيروتي فقط ، أتمنى أن يتاح لي ولرفاقي المجال لكي نحملها الى خارج هذه « المدينة الممتازة » الى مكان حيث لا دجل في الفن وفي الفن ـ الثورة •

كلمة أخيرة : « لتمت دسدمونا » درس للثوار وللفنانين الثوار ومسيرة لمن يرغب بالتجديد وكسر الاقنعة • ان منطقتنا تمر بأيام حاسمة فاما أن ننفذ منها ، من خلال أمل خلقته الثورة الفلسطينية ـ ربما من غير أن تدري ـ واما

أن نعود فنكرس لاجيال أصنام الماضي وأقنعة صارت قطعة من تاريخنا الكذاب ٠٠

لا قدر ذلك الذي في السماوات ، ان كان ما زال هناك ٠٠

ريمون جباره

شجاعة بلا تملق

طرحت علي أسئلة كثيرة حول المسرح الطليعي ٠ وليس هناك ، بالنسبة الي ، مسرح طليعي ٠ فالمسرح اما أن يكون مسرحا أو لا يكون ٠ لكل خلاق طريقته الخاصة بالتعبير ، ووسائل التعبير كثيرة بلا نهاية ٠ الجوهري ، كما أرى ، هو أن ريمون جباره نجح في « لتمت دسدمونا » في أن يعبر بطريقة شخصية تماما وأصيلة ، وسمها ان شئت طليعية ٠ ان الكشف عن الكائن الانساني بعواطفه وحسراته ، والبحث عن الحرية ، والمصير والقدر ٠٠ هذا كله كان دائما محور اهتمام كل ابداع فني ٠ وأعتقد أن ريمون جباره عرف أن يبرز عذاب الانسان برصانة ودراية لا مثيل لهما ٠

كنت أفضل ، كممثل ، ألا أمثل « الغريب » ، « المنقذ » ذلك أنني لم أكن أشعر أنني أهل لتجسيد شخصية كهذه ٠ كنت أحب لو مثلت دور واحد من أولئك الاشخاص الذين يجب انقاذهم ، والذين يقفون موقفا عدوانيا من منقذهم٠ وقد عرف ريمون جباره أن يعطي أهمية للعنصر الاكثر أهمية في المسرح وهو الممثل ٠ وأنا من هذا الرأي ٠

ما آخذه على المسرحية هو خلوها من النساء العاريات ، اذ لو امتلأت بهن ، لكان جمهورنا الغالي ، على الارجح ، أعجب كثيرا بهذه المسرحية التي لم تكن سياسية ولا جنسية ، ولا مسلية ، وانما هي مسرحية تحاول ، بشجاعة ودون تملق ، أن تعالج مشكلات انسانية ، والكائن الانساني ، بالنسبة الي ، كان دائما وسيبقى المشكلة الاساسية الاولى التي تجب معالجتها ٠

ستبقى مسرحية « لتمت دسدمونا » محفورة في قلبي وفكري ٠ وآمل أن يتمكن الكثيرون من رجال المسرح من البقاء أوفياء لرسالة المسرح ٠ وأرجو الله أن يساعدني لكي أقاوم لتوكيد هذا الوفاء ٠

منير معاصري

المشاهد ممثل كذلك

قمت بتمثيل عدة ادوار على خشبة المسرح ، وكذلك على الشاشة الصغيرة منذ نشأة التلفزيون في لبنان ، ولكني لم أمر بتجربة فنية صعبة كالتي مررت بها في مسرحية « لتمت دسدمونا » • فهي أول تجربة من نوعها تقدم على خشبة المسرح في لبنان ، وأول تجربة من نوعها يمر فيها ممثل مسرحي لبناني •

الجديد في هذه المسرحية هو خروجها في الاخراج والتمثيل عن الاطار الكلاسيكي الذي تعود أن يراه الجمهور اللبناني في المسرحيات السابقة • كنت في هذه التجربة أفكر بحرية وأعيش بحرية وأمثل بحرية • لم أكن مقيـــدا بنص مسرحي أو باضاءة أو موسيقى ، معتمدا بذلك على امكاناتي الفنية وعلى بعض الارشادات من المخرج • كنت أشعر أن الجمهور يشاركني فعليا في تقديم هذا العمل الجديد ، لا بل الاكتشاف الجديد الذي جعل كل فرد من المتفرجين عضوا في هذه المجموعة المتحركة على خشبة المسرح ، يفكر معها ويعيش معهـا ويمثل معها •

ان مسرحية « لتمت دسدمونا » للمؤلف والمخرج ريمون جباره ، هي ثمرة خبرة سنوات عديدة على خشبة المسرح • فباكتشافه الجديد هذا قد شق طريقا جديدا تعرف فيه الممثل والمتفرج الى وجه جديد من وجوه الفن المسرحي ، وطريقة جديدة توثق علاقة الممثل أكثر فأكثر بالمتفرج • لقد أصبح من ورائها العمل المسرحي عملا جماعيا يشترك فيه الجمهور والعاملون في المسرح معا ، لا العاملون وحدهم • وهذا ما جعل أيضا العلاقة بين التفكير والعيش والتمثيل وثيقة جدا عند المتفرج كما هي عند الممثل ، لانه كما سبق أن قلت بأن هذه المسرحيـــة جعلت من المتفرج عضوا في المجموعة المتحركة على المسرح •

حسني موسى

المغامرة الرائعة

كنت أعرف منذ البداية أنني أمثل في مسرحية « ليست كالاخريات » • كان ريمون جباره قد حدثنا عنها في مناسبات مختلفة ، فبدأت أعيش في مناخها قبل البدء بتمثيلها • وكنت أشعر منذ بدأت التمثيل أنني قريبة جدا من العالم

الذي خلقه ريمون جباره ، وأنني أفهمه جدا ، وأعرف ما يريد أن يقوله ٠ من الغريب ، مع ذلك ، أنني شعرت بصعوبة كبيرة في أداء دوري ، ذلك أن الاشياء لم تأخذ دلالتها ومعناها الا من خلال التجارب المتكررة ٠ قلت انني عرفت المسرحية لكن هذه المعرفة كانت تجريدية لم تصبح حقيقية حية الا بعد احتكاكها بالواقع الاليف ، واحتكاكي مع الممثلين الاخرين ، وكان حضوري وتحركي والكلمات التي أقولها وأتمتمها وأكررها وأوقعها ٠٠٠ كان هذا كله يكتسب دلالته ومعناه يوما بعد يوم ٠

ثم بدأ عرض المسرحية على الجمهور ، وتبتدىء كل مساء المغامرة الرائعة : مغامرة المعاناةالمشتركة لضجرنا وعبثنا وأحلامناوآمالنا التي ما ان بدأنا نستشفها حتى أخذت تتفتت في لعنة تسحقنا : لعنة وضعنا كمستغلين ٠

مادونا غازي

متى نترك الانسان يحيا ؟

كانت مسرحية « لتمت دسدمونا » ، بالنسبة الي ، حقل تجربة لا تستنفذ، من ناحية التمثيل والمحتوى والشكل على السواء ٠

لم يكن هناك ، بالنسبة الى الممثل ، دور يؤلفه سيكولوجيا ، ولا طريقة منطقية يتبعها في تطور الشخصية ، بل كانت هناك سلسلة من الحالات المختلفة يعيشها ٠ ولم يكن بد ، لنجاح هذه التجربة الجديدة ، من فهم المسرحية والتعلق بها على الاخص ومعاناتها ٠ وهكذا شارك الممثلون في النص وفي الاخراج ٠

ليس بين شخوص المسرحية أي تواصل انساني رغم أنهم يتحملون مصيرا واحدا ٠ كل منهم جامد في أنانيته ، ويرفض لاشعوريا الخروج من هذه الوحدة الاخلاقية ، الجسدية تقريبا ٠ وكل شخص يمثل من الانسان الجانب الحيواني لا الجانب الملائكي ٠

لم أشعر في أية لحظة من لحظات تمثيلي ، كانسان ــ ممثل ، أنني مختلف ومنفصل عن الانسان ــ المشاهد ٠ كنت أخرج كل مساء من بين المقاعد ، وأصعد الى الخشبة لكي أرفض الراحة التي يتمتع بها المشاهدون وأتهمهم جميعا ، مستعينا بالنص الذي أعطاني اياه ريمون جباره ، وأقول أعطاني ولم يعرني لان كلمات جبارة أصبحت كلماتي ٠

كنت أبحث في عيني المشاهد لكي أتهمه ، واستمررت في اتهامه حتى موت الرجل ــ المنقذ ٠

المشاهدون سفاحون ؟ كلا ! الجميع ، مشاهدين وممثلــين ، سفاحون متفقون ضمنيا على قتل **العادل** ، **المحرر** ، **الانسان الجديد** ٠

اعتبر البعض أن المسرحية صعبة ، مليئة بالرموز التي يتعذر فهمها ٠ هذا خطأ ٠ فالمسرحية متماسكة ، واضحة ، يمكــن أن يفهمها الجميع ٠ غــير أن مصيبتنا الكبرى في هذا الجزء من العالم ، انما هي الكسل العقلي ، فنحــن نرفض أن نفكر ٠ لقد جاء **انساننا** ليحركنا ، ليوقظنا ، ويقتل فينا هذا السبات المرضي ٠ وهو يفعل ذلك منذ **المسيح** حتى الثوريين المحررين ٠ فمتى نترك هذا الانسان يحيا ؟

جوزيف خوري

انا الرجل ٦

أنا الرجل ٦ ، واحد من أبناء هذه « المدينة العظيمة » التي بناها ريمون جبارة في كابوسه المسرحي « لتمت دسدمونا » ٠ تسألني من أنا ؟ أكاد لا أعرف ٠٠ ربما جسد بلا روح ، لا ، أنا روح مليئة بالحقد والكراهية ، أحيانا أتفجر غضبا وأحيانا أضيع وأموت من السلبية واللامبالاة والعذاب ٠ بالعذاب أعيش ولكي أنسى عذابي أتلذذ بعذاب الاخرين ٠ ولولا حضور « الممثــل الغريب » القائد الذي نريد ، لما أحسست بأنفاسي تتردد بداخلي فأنا هنا لاعارض ، لاهدم كل شيء حتى العالم المثالي والقيم التي كنا ننشدها في هذا الرجل المنقذ ٠ الشعور الوحيد الذي سيطر علي هو الشعور بلذة تعذيب الاخرين أو بالاحرى السادية المطلقة ٠ كنا نلعب بهذا الرجل لعبة القط والفأر وندحرجه وهو الذي جاء ومات من أجلنا ٠

في « لتمت دسدمونا » كنت الجانب المخادع من اللعبة المسرحية حيث كانت الجماعة تمارس بواسطتي الارهاب والتهديد والضغوطات النفسية على الرجل المخلص (مشاهد قطع الرأس ــ انقلاب الحكم علي في المحكمة ــ قطع الرأس خلف الستار ٠٠٠)

واذا سألتني عما كنت أفكر به من خلال اللعب على الخشبة فهو ــ عــــدم المؤاخذة ــ ما أفكر به الان وما قد أفكر به غدا ٠٠ الحقيقة ان شخصية الرجل

٦ أو ٢ أو ٤ أو ٠٠ الخ ، هي شخصيات محببة لنا جميعا وقريبة منا • فهي تعيش بداخلي أنا شخصيا وربما بداخل كل أبناء هذه « المدينة الفاضلة » والا فما نفع الحياة — حياتنا نحن العرب — دون كذب وخداع وحقد ؟ هكذا يا للاسف خلقنا وهكذا سنبقى حتى النهاية دائما بانتظار البلاغ الاول « فنحن مع أغاممنون اذا انتصر أغاممنون ونحن مع كليتمنستر اذا انتصرت كليتمنستر » •

صلاح مخللاتي

طور مسرحي جديد

بمسرحية « لتمت دسدمونا » دخل المسرح في طور جديد لاسباب عديدة منها التمثيل والاخراج والتأليف • الممثل هنا هو العنصر الاساسي • فقد جعل ريمون جباره التأليف والاخراج والضوء والموسيقى والديكور والثياب وحتى الجمهور في خدمة الممثلين • وهذه ناحية أعتبرها جديدة على المسرح اللبناني • كنا قبلا نأخذ الدور فندرس نفسيته وحركاته ونلعبه ، أما في هذه المسرحية فكنا نلعب عدة أدوار في فترات قصيرة جدا : تارة نمثل ، وتارة نتوقف للتفتيش عن أدوار ، أية أدوار من أجل الجمهور • وكنا نضجر ونقوم بأعمال تجيء صدفة ، وهذا كله يتطلب مقدرة وحنكة وقوة في الشخصية وفي الفن المسرحي •

وقد أذهلني ، بشكل خاص ، مشهد المحاكمة الذي يعبر عن نفسية الانسان ، عن عظمته وانحطاطه ومشكلاته • كيف نبتدئ بلعبة صغيرة ثم يحكم على المتهم وينفذ الحكم بغيره •

منير غاوي

الكابوس

ستموت دسدمونا كل يوم في بلادي كما ماتت دسدمونا ريمون جباره • سيقتلونها قبل أن تولد • سيقتلونها في المهد ، وينتظرون ••

لم تستهوني مسرحية كما استهوتني دسدمونا • وما مثلت حتى اليوم كما مثلت في دسدمونا • كنت ألعب أنا نفسي ذاتي رافضا في الوقت نفسه نفسي وذاتي •

لم تكن دسدمونا حلما أو كابوسا ، لكننا نحن كشعب كنا نريدها كذلك كي نوفر عناء التفكير ونتسلى بأن نقول : « كابوس دسدمونا •• كابوس سيزول وننساه » •

ما هي الوسائل وكيف ؟ لا ندري •

عزاؤنا الوحيد أنها كابوس •

نزيه قطان

الملتقى الشعري الاول : ما هي النتائج ؟

كان الملتقى الشعري الاول الذي دعا اليه النـــادي الثقافي العربي في بيروت ، وسيلة لفهم اعمق لبعض القضايا السائدة عن حركة الشعر الحديث • فمن خلال القصائد التي ألقيت ، والندوات والمناقشات التي أقيمت ، ظهر لمتذوق الشعر أن الحركة الشعرية الحديثـــة ليست **مدرسة شعرية** بالمفهوم الغربي لهذه الكلمة • فلا يجمع هؤلاء الشعراء في كتابة الشعر منطلق فني واحد ولا تتجه قصائدهم نحو هدف واحد • ولا تختلف أو تقترب ، بالقياس أو بالنسبة الى نظرية شعرية واحدة • صحيح ان حركة الشعر الحديث اكتسبت صفات واحدة ، لكن هذه الصفات ظلت شكلية عامة لا تمس جوهر الشعر • وهكذا بدلا من أن تتجمع القصائد الحديثة في حلقة واحدة ــ فيما لو كانت هذه الحركة مدرسة شعرية ــ تفرقت لتعبر كل قصيدة عن الشاعر الذي كتبها ولتمثله • فحركة الشعر الحديث هي الشعراء الحديثون ، بكل ما تختلف وجهات نظرهم وتتباين طرق ابداعهم •

ومن هنا نرى ان التباين بين قصيدة وقصيدة من حيث المستوى الابداعي ومن حيث فهم العالم والواقع كان ضروريا لمتذوق الشعر من أجل أن يعيد النظر في فهمه للشعر • وكان ضروريا كذلك لحركة الشعر الحديث من أجل ان يأخذ هذا المتذوق مكانه الايجابي فيها ــ لانه هو كذلك جزء منها ــ ولكي يشارك هو نفسه في عملية الابداع •

كذلك ساعد هذا الملتقى في جعل المقاييس الفنية السائدة عند الجمهور أكثر تفككا • وهذا مما يخدم قضية الابداع • فالمقاييس الفنية التي يدخل منها القارىء العربي الى الشعر ، الحديث منه والقديم ، مقاييس أتت من الماضي أو النقد السطحي ولم تأت من الشعر نفسه • والغالبية العظمى من القراء يعرفون الشعراء شهرة وأسماء ، ولا يعرفونهم من قصائدهم ، وهم لذلك يقسمون الشعر الى قديم وحديث ، ويجمعون بين شعراء هم من حيث الابداع متباعدون جدا • وقد أتاح هذا الملتقى عندما جمع الجمهور مع الشعراء في مواجهة أولى ان يضع هذه المقاييس أمام امتحان ، ولا شك ان الكثير منها سقط مما يدفع الجمهور الى التفتيش عن مقاييس أخرى • وهذه بالطبع خطوة ايجابية • هكذا يمكن القول ان النتائج الاخيرة لهذا الملتقى ليست في انه قدم شعرا جيدا أم لا ، بل هي في توسيع او تضييق حلقة التواصل بين الجمهور والشاعر من جهة ، وبين الذوق والشعر من جهة ثانية • واذا كان هناك جديد في الشعر الحديث فان على هذا الجديد أن يجد له ارضا عند القارىء حتى يثمر • واذا كان هذا القارىء يدخل على الشعر من باب الماضي فلن يصل الى الجديد بل سيبقى في الماضي • هكذا لا يعود هناك جديد بل يجمد الزمان في الماضي حيث يبقى العالم ملكا للقدماء •

وهذا بالطبع ضد الابداع اذا فهمنا بالابداع امتلاك العالم كل لحظة واعتباره عالما طيعا بين الاصابع ·

واذا لم تكن حركة الشعر الحديث مدرسة فمعنى ذلك أن علينا ان نبحث عن الشعر الجيد في هذه الحركة ، ومعنى ذلك أن علينا ان نقيم الشاعر من خلال شعره لا من خلال نظرة تجمع الشعر الحديث ككل · عندها ستسقط المسافة بين الحديث والقديم لكي تنهض بين الابداع والتقليد ، بين الشعر واللاشعر * ·

سمير الصايغ

---

* عقد الملتقى بين ٨ ـ ١١ كانون الاول ١٩٧٠ ، وشارك فيه الشعراء : صلاح أحمد ابراهيم ، أدونيس ، ناديا تويني ، خليل حاوي ، أحمد عبدالمعطي حجازي ، سلافة حجاوي ، قاسم حداد ، طلال حيدر ، بلند الحيدري ، حميد سعيد ، وليد سيف ، صلاح عبد الصبور ، موريس عواد ، جورج غانم ، محمد الفيتوري ، نزار قباني ، عبداللطيف اللعبي ، ممدوح عدوان مصطفى ، محمد عفيفي مطر ، عزالدين المناصرة ، فؤاد غبريال نفاع ، كريم الكركي ·

وقبل المشاركة فيه ، لكن حالت ظروف صعبة دون حضور بعضهم واعتذر البعض الاخر عن اضطرارهم للتغيب : عبدالوهاب البياتي ، فؤاد حداد ، جورج شحاده ، أندريه شديد ، فؤاد قاعود ، محمد الماغوط ·